سورة الأعراف وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿المص ① كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② الحزب
اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٦

قد تقدم الكلام فى أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبى عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس ﴿المص﴾ أنا الله أفصل، وكذا قال سعيد بن جبير ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدى: شك منه، وقيل: لا تتحرج به فى إبلاغه والإنذار به ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥].

ولهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أى أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال تعالى مخاطبًا للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣] وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف: ١٠٦].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑤ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ⑦﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزى الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأنعام: ١٠]. وكقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[الحج: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص: ٥٨]. وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتًا أى ليلاً، أو هم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف: ٩٧-٩٨] وقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ٤٥-٤٧].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝﴾ أى فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥] قال ابن جرير [(١)]: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبى سنان عن عبدالملك بن ميسرة الزراد، قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضًا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ قال: عما بلغوا.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندى، حدثنا المحاربى عن ليث عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته، والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده» قال الليث: وحدثنى ابن طاوس مثله، ثم قرأ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝﴾ وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين [(٢)] بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس فى قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شىء لا يغيب عنه شىء ولا يغفل عن شىء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩].

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ أى للأعمال يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أى لا يظلم تعالى أحدًا كقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ

---

(١) رواه الطبرى (٨/ ١٢٠) عن ابن مسعود، انظر «عون المعبود» (١١/ ٣٣٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٨٩٣)، ومسلم برقم (١٨٢٩)، والترمذي، حديث (١٧٠٥) عن ابن عمر.

أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[القارعة: ٦-١١] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١-١٠٣]

(فصل): والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال، وإن كانت أعراضًا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجسامًا، قال البغوى: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء فى الصحيح [١] من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف. ومن ذلك فى الصحيح [٢] قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك. وفى حديث البراء [٣] فى قصة سؤال القبر «فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»، وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق، وقيل: يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلًا كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تظلم، فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان، قال رسول الله ﷺ: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذى [٤] بنحو من هذا وصححه، وقيل يوزن صاحب العمل كما فى الحديث [٥] «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة» ثم قرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف: ١٠٥]، وفى مناقب عبد الله بن مسعود: أن النبى ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه؟ والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد» [٦] وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى: ممتنًّا على عبيده فيما مكن لهم، من أنه جعل الأرض قرارًا وجعل فيها رواسى وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معايش أى مكاسب وأسبابًا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤] وقد قرأ الجميع «معايش» بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشًا ومعيشة أصلها

---

(١) أخرجه مسلم حديث (٨٠٤)، وأحمد حديث (٢١٦٤٢)، عن أبي أمامة.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وأحمد (٢٢٤٦٧)، عن ابن بريدة عن أبيه.
(٣) أخرجه أبو داود، حديث (٤٧٥٣)، وأحمد، حديث (١٨٠٦٣)، من حديث البراء.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه حديث (٤٣٠٠)، وأحمد برقم (٦٩٥٥)، عن عبد الله بن عمرو.
(٥) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٩)، ومسلم برقم (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.
(٦) أخرجه أحمد (٣٩٨١)، عن ابن مسعود.

معيشة، فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء؛ لزوال الاستثقال فقيل: معايش ووزنه مفاعل، لأن الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها زائدة، ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٠] وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرًا سويًّا ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير سورة البقرة، وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير، أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام. وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ قال: خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضًا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدى وقتادة والضحاك فى هذه الآية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أى خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر، لأنه قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع، لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمن موسى، ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ الآية [المؤمنون: ١٢-١٣]، فإن المراد من آدم المخلوق من السلالة، وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينًا، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ ﴿١٢﴾﴾ **لا هنا زائدة، وقال** بعضهم زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

فأدخل «إن» وهى للنفى على ما النافية لتأكيد النفى، قالوا: وكذا ههنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] حكاهما ابن جرير وردهما، واختار أن منعك مضمن معنى

فعل آخر، تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذى هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعنى -لعنه الله- وأنا خير منه فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلهذا أبلس من الرحمة أى أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله فى قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.

وفى صحيح مسلم[1] عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» هكذا رواه مسلم، وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» قلت لنعيم بن حماد: أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال: باليمن، وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح «وخلقت الحور العين من الزعفران»، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس وهو أول من قاس، إسناده صحيح، وقال: حدثنى عمرو بن مالك، حدثنى يحيى بن سليم الطائفى عن هشام عن ابن سيرين، قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، إسناد صحيح أيضًا.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخاطبًا لإبليس بأمر قدرى كونى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أى بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أى الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد (٢٤٦٦٨)، عن عائشة رضي الله عنها.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأنعام: ١٤] واستوثق إبليس بذلك، أخذ فى المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أى كما أغويتنى، قال ابن عباس: كما أضللتنى، وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أى طريق الحق وسبيل النجاة، لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية كأنه يقول: فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: صراطك المستقيم يعنى الحق، وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة، قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

(قُلْتُ): لما روى الإمام أحمد [1]: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل، حدثنا موسى بن المسيب، أخبرنى سالم بن أبى الجعد، عن سبرة بن أبى الفاكه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال: فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتُنكَح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه وجاهد». وقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة» وقوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أشهى لهم المعاصى.

وقال ابن أبى طلحة فى رواية العوفى كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم، وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وكذا روى عن إبراهيم النخعى والحكم بن عتيبة والسدى وابن جريج، إلا أنهم قالوا: من بين أيديهم الدنيا، ومن خلفهم الآخرة.

وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

(١) أخرجه النسائي (٣١٣٤)، وأحمد حديث (١٥٥٢٨) عن سبرة بن أبي فاكه.

أَيْنَنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ ولم يقل من فوقهم، لأن الرحمة تنزل من فوقهم، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق فى هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠-٢١]؛ ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا نصر بن على، حدثنا عمرو بن مجمع، عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعنى نافع بن جبير، عن ابن عباس. وحدثنا عمر بن الخطاب يعنى السجستانى، حدثنا عبيد الله بن جعفر، حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة، عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى» تفرد به البزار وحسنه [(١)].

وقال الإمام أحمد [(٢)]: حدثنا وكيع، حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى، حدثنى جرير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم، سمعت عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى، قال وكيع: من تحتى يعنى: الخسف.

ورواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفى عن محل الملأ الأعلى، بقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قال ابن جرير: أما المذءوم فهو المعيب، والذأم غير مشدد: العيب يقال: ذأمه يذأمه ذأمًا فهو مذؤوم، ويتركون الهمزة فيقولون: ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم، قال: والمدحور المقصى، وهو المبعد المطرود.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم والمذموم إلا واحدًا.

وقال سفيان الثورى: عن أبى إسحاق عن التميمى عن ابن عباس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ قال: مقيتًا، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: صغيرًا مقيتًا: وقال السدى: مقيتًا مطرودًا، وقال قتادة: لعينًا مقيتًا، وقال مجاهد: منفيًا مطرودًا. وقال الربيع بن أنس: مذءومًا منفيًا والمدحور المصغر.

---

(١) أورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٥) عن ابن عباس وقال: رواه البزار وفيه يونس بن حبان وهو ضعيف.
(٢) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٧٤)، وابن ماجه برقم (٣٨٧١)، والنسائي(٥٥٢٩)، (٥٥٣٠) وأحمد برقم (٤٧٧٠) عن ابن عمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى فى المكر والوسوسة والخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن و﴿قَالَ﴾ كذبًا وافتراء ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أى لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠] أى لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[النساء: ١٧٦] أى لئلا تضلوا ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[النحل: ١٥] أى لئلا تميد بكم، وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن «إلا أن تكونا مِلَكين» بكسر اللام، وقرأه الجمهور بفتحها، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى حلف لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فإنى من قبلكما ههنا وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، والمراد أحد الطرفين، كما قال خالد بن زهير ابن عم أبى ذؤيب:

وقاسمهم بالله جهدًا لأنتم ألذ من السلوى إذ ما نشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة فى الآية: حلف بالله إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكم فاتبعانى أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خدعنا بالله انخدعنا له.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه، قال: كان آدم رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة، بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها، فانطلق هاربًا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسلينى.

فقالت: إنى غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم أمنى تفر؟ قال: يا رب إنى استحييتك، وقد رواه ابن جرير [1] وابن مردويه من طرق، عن الحسن عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ مرفوعًا،

(١) رواه الطبرى في تفسيره (٨/ ١٤٣) عن أبي بن كعب.

والموقوف أصح إسنادًا. وقال عبد الرزاق [١]: أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك، عن الحسن بن عمارة، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما، وكان الذى وارى عنهما من سوآتهما أظفارهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام موليًّا فى الجنة، فعلقت برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله: يا آدم أمنى تفر؟ قال: لا ولكنى استحييتك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك، قال: بلى يا رب ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدًا يحلف بك كاذبًا، قال: وهو قول الله عز وجل: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] قال: فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدًّا، قال: فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدًا، فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذرّاه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ.

وقال الثورى: عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ورق التين، صحيح إليه. وقال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه فى قوله ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، قال: كان لباس آدم وحواء نورًا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما، رواه ابن جرير بسند صحيح إليه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة، قال: قال آدم «أى رب أرأيت إن تبت واستغفرت؟ قال: إذًا أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذى سأله، وقال ابن جرير [٢]: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا عباد بن العوام، عن سفيان بن الحسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتنى، قال: فإنى قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهًا ولا تضع إلا كرهًا، قال: فرنت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك، وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه.

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

قيل: المراد بالخطاب فى ﴿اهْبِطُوا﴾ آدم وحواء وإبليس والحية، ومنهم من لم يذكر الحية، والله أعلم، والعمدة فى العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى فى سورة طه ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، والحية إن كان ذكرها صحيحًا فهى تبع لإبليس، وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها، ولو كان فى

(١) رواه الطبرى (٨/ ١٤٢) عن ابن عباس من حديث عبد الرزاق.
(٢) رواه الطبرى (٨/ ١٤٤) عن ابن عباس.

تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله ﷺ، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الأول، وقال ابن عباس ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ القبور، وعنه قال: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ فوق الأرض وتحتها، رواهما ابن أبى حاتم، وقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[طه: ٥٥] يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارًا لبنى آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كلًا بعمله.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يَمْتَنُّ تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهى السوآت، والرياش والريش: ما يتجمل به ظاهرًا، فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات، قال ابن جرير: الرياش فى كلام العرب: الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاه البخارى عنه: الرياش: المال وهكذا قال مجاهد وعروة بن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد، وقال العوفى عن ابن عباس: الريش: اللباس والعيش والنعيم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرياش: الجمال.

وقال الإمام أحمد [1]: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى، قال: لبس أبو أمامة ثوبًا جديدًا فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوبًا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى، ثم عمد إلى الثوب الخلق -أو ألقى- فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيًا وميتًا» ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهنى، وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف إلا بهذا الحديث، ولكن لم يخرجه أحد، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد [2] أيضًا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر، أنه رأى عليًا رضى الله عنه أتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين، يقول حين لبسه: الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى، فقيل: هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ؟ قال: هذا شىء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة: «الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى»، وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ قرأ بعضهم «ولباس- التقوى» بالنصب، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره، واختلف المفسرون فى معناه، فقال عكرمة: يقال: هو ما يلبسه

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٠٧)، عن أبي العلاء الشامي، والترمذي حديث (٣٥٦٠)، وابن ماجه برقم (٣٥٥٧).
(٢) أخرجه أحمد، حديث (١٣٥٨) من حديث محمد بن عبيد.

المتقون يوم القيامة، رواه ابن أبى حاتم، وقال زيد بن على والسدى وقتادة وابن جريج: ولباس التقوى: الإيمان.

وقال العوفى عن ابن عباس: العمل الصالح، قال زياد بن عمرو عن ابن عباس: هو السمت الحسن فى الوجه، وعن عروة بن الزبير: لباس التقوى: خشية الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذاك لباس التقوى، وكل هذه متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير [1] حيث قال: حدثنى المثنى حدثنا إسحاق بن الحجاج، حدثنى إسحاق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهى محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفس محمد بيده عمل أحد قط سرًا إلا ألبسه الله رداء علانية، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر» ثم قرأ هذه الآية ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال: السمت الحسن، هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف، وقد روى الأئمة الشافعى وأحمد والبخارى فى كتاب «الأدب» من طرق صحيحة عن الحسن البصرى، أنه سمع أمير المؤمنين عثمان بن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر، وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير له شاهدًا من وجه آخر حيث قال: حدثنا محمود بن محمد المروزي، ثنا حامد بن آدم المروزي، ثنا الفضل بن موسى، عن محمد بن عبيد الله العرزمي، عن سلمة بن كهيل، عن جندب بن سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر».

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله، مبينًا لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام، فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة

(١) رواه الطبرى (٨/ ١٤٩) من حديث سليمان بن أرقم عن الحسن.

على فرجها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية، قلت: كانت العرب ما عدا قريشًا لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسى ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا، ولا أعاره أحمسى ثوبًا طاف عريانًا، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿قُلْ﴾ أى يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أى بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، وأن يكون خالصًا من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ اختلف فى معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وقال قتادة: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئًا ثم ذهبوا ثم يعيدهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرًا، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين [(١)] من حديث شعبة، وفى صحيح البخارى أيضًا من حديث الثورى به.

وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلمًا والكافر كافرًا. وقال أبو العالية ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ردّوا إلى علمه فيهم. وقال سعيد بن جبير ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما كتب عليكم تكونون، وفى رواية كما كنتم عليه تكونون، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم، برقم (٢٨٦٠)، والترمذي برقم (٣١٦٧)، والنسائي حديث (٢٠٨٧).

عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدءوا عليه، وقال السدى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: يقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال، كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأهم مؤمنًا وكافرًا: قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى «فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة». وقال أبو القاسم البغوى: حدثنا على بن الجعد، حدثنا أبو غسان عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث رواه البخارى من حديث أبى غسان محمد بن مطرف المدنى فى قصة قزمان يوم أحد.

وقال ابن جرير [1]: حدثنى ابن بشار حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «تبعث كل نفس على ما كانت عليه» وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه [2] من غير وجه عن الأعمش به، ولفظه «يبعث كل عبد على ما مات عليه»، قلت: ويتأيد بحديث ابن مسعود، قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية، وبين قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم: ٣٠] وما جاء فى الصحيحين [3] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه».

وفى صحيح مسلم [4] عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث، ووجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر فى ثانى الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله فى غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقيًا ومنهم سعيدًا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن: ٢] وفى الحديث [5] «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»، وقدر الله نافذ فى بريته، فإنه هو ﴿وَٱلَّذِى

(١) رواه الطبرى (٨/ ١٥٧) عن جابر عن النبي ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم، حديث (١٨٧٨)، وأحمد برقم (١٤١٣٤) من حديث الأعمش عن جابر.
(٣) أخرجه البخاري برقم (١٣٨٥)، ومسلم برقم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥)، عن عياض بن حمار المجاشعى، وأحمد حديث (١٧٠٣٠).
(٥) أخرجه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد (٢٢٣٩٥).

قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] و﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وفى الصحيحين [١] «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ ثم علل ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها، لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه هادٍ، وفريق الهدى فرق، وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية.

ربع الحزب ١٦

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما، رواه مسلم والنسائى وابن جرير [٢]، واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ وقال العوفى: عن ابن عباس فى قوله: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير وقتادة والسدى والضحاك مالك، عن الزهرى وغير واحد من أئمة السلف فى تفسيرها: أنها نزلت فى طواف المشركين بالبيت عراة، وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعى عن قتادة، عن أنس مرفوعًا [٣]، أنها نزلت فى الصلاة فى النعال، ولكن فى صحته نظر، والله أعلم، ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب؛ لأنه من الزينة والسواك؛ لأنه من تمام ذلك؛ ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا على بن عاصم، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه [٥] من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم به، وقال الترمذى: حسن صحيح،

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٦٢)، ومسلم برقم (٢٦٤٧)، عن على رضي الله عنه، وأبو داود برقم (٤٦٩٤)، والترمذي برقم (٣٣٤٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٠٢٨)، والنسائي برقم (٢٩٥٦)، وابن جرير (٨/ ١٦٠) عن ابن عباس.

(٣) رواه العقيلي في ضعفائه (٣/ ١٤٢) حديث (١١٢٦) عن قتادة عن أنس وفي إسناده عباد بن جويرية: قال أحمد: كذاب.

(٤) مسند أحمد (٢٢٢٠).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٣٨٧٨)، والترمذي برقم (٩٩٤)، وابن ماجه برقم (١٤٧٢) من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد عن ابن عباس.

وللإمام أحمد أيضًا وأهل السنن [١] بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم» وروى الطبرانى بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أن تميمًا الدارى اشترى رداء بألف وكان يصلى فيه، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله فى نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقال البخارى: قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة، إسناده صحيح، وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا بهز، حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائى وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة» وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكنانى، حدثنا يحيى بن جابر الطائى سمعت المقدام بن معديكرب الكندى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلًا لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ورواه النسائى والترمذى [٤] من طرق عن يحيى بن جابر به، وقال الترمذى: حسن، وفى نسخة: حسن صحيح.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده [٥]: حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا بقية عن يوسف بن أبى كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» ورواه الدارقطنى فى الأفراد، وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية، وقال السدى: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا فى الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا فى التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾: يقول: ولا تأكلوا حراما ذلك الإسراف، وقال عطاء الخراسانى: عن ابن عباس قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾: فى الطعام والشراب.

وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ حده فى حلال أو حرام الغالين فيما أحل أو حرم بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذى أمر به.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٢٧)، والنسائي (٥٣٢٢). (٢) سبق تخريجه.
(٣) أحمد (١٦٧٣٥).
(٤) الترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٧٧) برقم (٦٧٦٩).
(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ١٥٤) حديث (٢٧٦٥). وأخرجه ابن ماجه (٣٣٥٢) من طريق بقية عن يوسف بن أبي كثير به. قال البوصيرى في مصباح الزجاجة (٤/ ٣١): هذا إسناد ضعيف.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ردًّا على من حرم شيئًا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية، أى هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حسًّا فى الدنيا فهى لهم خاصة يوم القيامة، ولا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين: قال أبو القاسم الطبرانى [١]: حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضى، حدثنا يحيى الحمانى، حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ فأمروا بالثياب.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله» أخرجاه فى الصحيحين [٣] من حديث سليمان بن مهران الأعمش، عن شقيق عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود، وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن فى سورة الأنعام. وقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال السدى: أما الإثم فالمعصية والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: ، الإثم المعاصى كلها، وأخبر أن الباغى بغيه كائن على نفسه، وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أى تجعلوا له شركاء فى عبادته ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ الآية [الحج: ٣٠-٣١].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أى قرن وجيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أى ميقاتهم المقدر لهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عن ذلك ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٣) حديث (١٢٣٢٤)، عن ابن عباس، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣): رواه الطبراني وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(٢) أحمد (٣٦٠٥).

(٣) البخاري (٥٢٢٠)، ومسلم (٢٧٦٠)، والترمذي (٣٥٣٠).

آياته وبشر وحذر، فقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أى ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ أى كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أى ماكثون فيها مكثًا مخلدًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اختلف المفسرون فى معناه، فقال العوفى عن ابن عباس: ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن يفترى على الله أن وجهه مسود، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال من عمل خيرًا جزى به، ومن عمل شرًا جزى به، وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وقال محمد بن كعب القرظى ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره، وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا القول قوى فى المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ونظير المعنى فى هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠] وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤] الآية، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قالوا: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أى أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أى من أشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أى من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أى مع أمم، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية [العنكبوت: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟

وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أى أخراهم دخولاً، وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون، لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ الآية [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وقوله ﴿قَالَ لِكُلٍّ فِيهَا ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ الآية [النحل: ٨٨]. وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ الآية [النحل: ٢٥]، ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ أى قال المتبوعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس، وكذا رواه الثورى عن ليث عن عطاء عن ابن عباس، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقاله السدى وغير واحد، ويؤيده ما قاله ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو، عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه [1] من طرق عن المنهال بن عمرو به.

(١) أبو داود (٤٧٥٣)، والنسائى (٢٠٠١) وابن ماجه (١٥٤٩).

وقد رواه الإمام أحمد [١] بطوله فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال -: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان» - قال -: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون -يعني بها- على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد البصر - قال -: ويأتيه رجل حسن الوجه وحسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب.

قال: فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ - ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا - ثم قرأ - ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]

(١) أحمد (١٨٠٦٣).

فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، فينادى مناد من السماء: أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة».

وقال الإمام أحمد أيضًا [1]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه، وفيه: حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء، وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم، وفى آخره: ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابًا، فيضربه ضربة فيصير ترابًا ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين، قال البراء: ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير [2] واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان فيقولون: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة التى كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر».

وقد قال ابن جريج فى قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير: قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة، وفى رواية: زوج الناقة.

وقال الحسن البصرى: حتى يدخل البعير فى خرم الإبرة، وكذا قال أبو العالية والضحاك، وكذا روى على بن أبى طلحة العوفى عن ابن عباس.

وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس: إنه كان يقرؤها «حَتَّى يَلِجَ الجُمَّلُ فِى سَمِّ الخِيَاط» بضم

---

(١) أحمد (١٨١٤٠).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٣) برقم (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢) وأحمد حديث (٨٥٥١)، وابن جرير (٨/ ١٧٧).

الجيم وتشديد الميم يعنى: الحبل الغليظ فى خرم الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفى رواية: أنه قرأ «حتى يلج الجُمّل» يعنى: قلوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال: الفرش. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها، وينبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى [1] من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فو الذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا» وقال السدى فى قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآية» إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا، وقد روى أبو إسحاق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحوًا من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وقال قتادة: قال على رضى الله عنه: إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ رواه ابن جرير، وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال: سمعت الحسن يقول: قال على: فينا والله أهل بدر نزلت ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ وروى النسائى [2] وابن مردويه واللفظ له من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هدانى فيكون له شكرًا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هدانى فيكون له حسرة»، ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٠)، أحمد، حديث (١٠٧١١).

(٢) أخرجه النسائي (٦/ ٤٤٧)، حديث (١١٤٥٤)، وأحمد برقم (٢/ ٥١٢)، حديث (١٠٦٦٠).

وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٩)، وقال: رواه كله أحمد، ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح.

أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين [١] عنه ﷺ أنه قال: «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ﴾ كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[الصافات: ٥٥-٥٩] أى: ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤-١٦] وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى: «يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رءوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا؟ وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قومًا قد جيفوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» [٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أى أعلم معلم ونادى مناد: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى مستقرة عليهم ثم وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به؛ فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه ولا عقابًا فهم شر الناس أقوالا وأعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ نصف الحزب ١٦

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابًا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى فيه: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣] وهو الأعراف. الذى قال الله تعالى فيه: ﴿وَعَلَى

(١) أخرجه البخاري، حديث (٥٦٧٣). ومسلم (٢٨١٦).

(٢) أخرجه مسلم حديث (٢٨٧٥)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٤٥٨) حديث (٦٥٢٥)، والنسائي (٤/ ١٠٩) حديث (٢٠٧٥)، وأحمد في مسنده (٣/ ٢٦٣)، حديث (١٣٧٩٩) عن أنس بن مالك.

﴿ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾: وهو السور وهو الأعراف. وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار سور له باب، قال ابن جرير: والأعراف جمع عُرْف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفًا، وإنما قيل لعرف الديك عرفًا لارتفاعه.

حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة عن عُبيد الله بن أبى يزيد، سمع ابن عباس يقول: الأعراف هو الشيء المشرف.

وقال الثورى عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور كعرف الديك. وفى رواية عن ابن عباس: الأعراف تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار، وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير.

وقال السدى: إنما سمى الأعراف أعرافًا؛ لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله.

وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسين حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لنا يقال له: أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[1] وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة بن أبى الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا فى سبيل الله» وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المزنى عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله» وهكذا رواه ابن مردويه وابن جرير[2] وابن أبى حاتم من طرق عن أبى معشر به، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعًا من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة، وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر. وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار، قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال: حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبى إسحاق قال: قال الشعبى: أرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو

---

(١) رواه أبو نعيم في مسند أبي حنيفة (١/ ٢٠٣) من طريق ابن عقيل عن جابر.

(٢) رواه الطبرى (٨/ ١٩٣) عن أبي معشر، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣) وقال: رواه الطبراني وفيه أبو معشر نجيح وهو ضعيف.

الزناد عبد الله ابن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا، من أصحاب الأعراف ذكرًا ليس كما ذكرا فقلت لهما: إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا: هات، فقلت: إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم: اذهبوا فادخوا الجنة فإني قد غفرت لكم.

وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٢] الآيتين، ثم قال: الميزان يخف بمثقال حبة، ويرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نورًا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نورًا، وكل أمة نورًا فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا: ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فكان الطمع دخولاً.

قال: فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول: هلك من غلبت وحدانه عشراته. رواه ابن جرير **وقال أيضًا:** حدثني ابن وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال: الأعراف السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدأ الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له: نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال: تمنوا ما شئتم، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم: لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفًا، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به، وقد رواه سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبد الله بن الحارث من قوله، وهذا أصح والله أعلم.

كذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد. وقال سعيد بن داود: حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم» [1] وهذا مرسل حسن، وقيل: هم أولاد الزنا، حكاه القرطبي وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شيبة بن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم

(١) رواه الطبري (٨/ ١٩٤) عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير.

ثواب وعليهم عقاب، فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم فقال: «على الأعراف وليسوا فى الجنة مع أمة محمد ﷺ» فسألناه وما الأعراف؟ فقال: «حائط الجنة تجرى فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار» [1] رواه البيهقى عن ابن بشران عن على بن محمد المصرى عن يوسف بن يزيد عن الوليد بن موسى به.

وقال سفيان الثورى: عن خصيف عن مجاهد قال: أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء، وقال ابن جرير، حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا بن علية عن سليمان التيمى عن أبى مجلز فى قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال: هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال: فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وهذا صحيح إلى أبى مجلز، لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله، وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه، وكذا قول مجاهد: إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضًا، والله أعلم، وقد حكى القرطبى وغيره فيهم اثنى عشر قولاً منها: أنهم شهدوا أنهم صلحاء تقرعوا من فبع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم ملائكة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه، وكذا روى الضحاك عنه، وقال العوفى عن ابن عباس: أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والناروليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله، وكذا قال مجاهد والضحاك والسدى والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

وقال معمر عن الحسن: إنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم: وقال قتادة: أنباكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال السدى: وإذا مروا بهم يعنى بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾: فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

---

(١) أورده الذهبي في سير الأعلام (١٧/ ٨) عن أنس بن مالك، وقال: هذا حديث منكر جدًّا.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول الله تعالى إخبارًا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم فى النار بسيماهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى كثرتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس يعنى أصحاب الأعراف ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقال حذيفة [1]: إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا: يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك، فقال: هل تعلمون أن أحدًا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى؟ فيقولون: لا فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى إبراهيم فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول: تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً؟ هل تعلمون أن أحدًا أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى؟ فيقولون: لا فيقول: ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول: هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليمًا وقربه نجيًّا غيرى؟ فيقولون: لا فيقول: ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له: اشفع لنا عند ربك، فيقول: هل تعلمون أحدًا خلقه الله من غير أب؟ فيقولون: لا فيقول: هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى؟ قال: فيقولون: لا، فيقول: أنا حجيج نفسى ما علمت كنهه، ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمدًا ﷺ فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى ثم أقول: أنا لها ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش فآتى ربى عز وجل فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى ثم أثنى على ربى عز وجل ثم أخر ساجدًا فيقال لى: ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول: «ربى أمتى فيقول: هم لك فلا يبقى نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود، فآتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لى ولهم فيذهب بهم إلى نهر يقال له: نهر الحيوان، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية، ويبقى

(١) رواه الطبرى (٨/ ١٩٩) من حديث محمد بن الحسين.

فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال: مساكين أهل الجنة».

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾: يعنى الطعام: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال الثورى عن عثمان الثقفى عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أوأخاه فيقول له: قد احترقت فأفض على من الماء فيقال لهم: أجيبوهم فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: يعنى طعام الجنة وشرابها.

قال ابن أبي حاتم [1]: حدثنا أبى حدثنا نصر بن على أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار فى دار عمرو بن مسلم قال: سألت ابن عباس أو سئل أى الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله؟» وقال أيضًا [2]: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له: لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به، فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى ﷺ فقال أبو بكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، وقوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أى يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شىء ولا ينساه كما قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[التوبة: ٦٧] وقال: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٦] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾[الجاثية: ٣٤].

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر، وقال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس قال: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: نتركهم فى النار.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٣)، حديث (٦١٩٢)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٧٧) حديث (٢٦٧٣) عن ابن عباس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٣١) رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط وفيه موسى بن المغيرة وهو مجهول.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٧) حديث (٣٤١٨٢) عن أبي صالح.

وقال السدى: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفى الصحيح [١] أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى فيقول: أظننت أنك ملاقى؟ فيقول: لا فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتنى؟.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الآية [هود: ١]، وقوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ للعالمين أى على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٢]، ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ الآية، وهذا الذى قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل ولا دليل عليه، وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة فى الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه.

وقال الربيع: لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ. وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ أى يوم القيامة قال ابن عباس ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أى تركوا العمل به وتناسوه فى الدار الدنيا: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ أى فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨] كما قال هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أى خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أى ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هى: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع

(١) أخرجه مسلم حديث (٢٩٦٨) عن أبى هريرة.

الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا فى هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده [1] حيث قال: حدثنا حجاج حدثنا ابن جريج أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعًا والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدًّا ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثًا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله لا يشبهه شىء من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم: نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال: من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه، ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أى يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثا أى سريعًا لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٣٧-٤٠] فقوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾[يس: ٤٠] أى لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو فى أثره بلا واسطة بينهما؛ ولهذا قال ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى، أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته؛ ولهذا قال منبهًا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أى له الملك والتصرف ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الآية[الفرقان: ٦١].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩)، وأحمد، حديث (٨١٤١).

قال ابن جرير [١]: حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى عن عبد العزيز الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئًا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه» لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفى الدعاء المأثور عن أبى الدرداء وروى مرفوعًا «اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله».

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل: معناه تذللاً واستكانة، وخفية كقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٥] وفى الصحيحين [٢] عن أبى موسى الأشعرى قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا إن الذى تدعونه سميع قريب» الحديث.

وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ **قال:** السر وقال ابن جرير: تضرعًا تذللاً واستكانة لطاعته وخفية يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهرًا مراءاة وقال عبد الله بن المبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، **ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على** الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدًا، **ولقد كان المسلمون يجتهدون فى** الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة.

ثم روى عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ **فى الدعاء ولا فى** غيره وقال أبو مجلز ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء، وقال أحمد [٣]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدًا سمع ابنًا له يدعو وهو يقول: اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيرًا كثيرًا وتعوذت به من شر كثير وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء» - وفى لفظ - «يعتدون فى الطهور والدعاء» - وقرأ

(١) رواه الطبرى (٨/٢٠٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم، حديث (٢٧٠٤)، وأحمد (١٩٠٢٦)، عن أبي موسى الأشعرى.
(٣) مسند أحمد (١٤٨٦).

هذه الآية ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ الآية - وإن بحسبك أن تقول: اللهم إنى أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل» ورواه أبو داود[1] من حديث شعبة عن زياد بن مخراق عن أبى نعامة عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله أعلم، وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الجريرى عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سل الله الجنة وعُذْ به من النار فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور» وهكذا رواه ابن ماجه[3] عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان به، وأخرجه أبو داود[4] عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن سعيد بن إياس الجُريْرى عن أبى نعامة واسمه: قيس بن عباية الحنفى البصرى، وهو إسناد حسن لا بأس به والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد فى الأرض وما أضره بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى خوفًا مما عنده من وبيل العقاب وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أى إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦-١٥٧] وقال: قريب ولم يقل: قريبة لأنه؛ ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال مطر الوراق: تنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبى حاتم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًا) أى منتشرة بين يدى السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًۢا﴾ كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أى بين المطر كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ أى حملت الرياح سحابًا ثقالاً أى من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة

(١) أخرجه أبو داود، حديث (١٤٨٠).
(٢) أحمد (٢٠٠٣١).
(٣) ابن ماجه (٣٨٦٤).
(٤) أبو داود (٩٦).

قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبًا زلالاَ
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالاَ

وقوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أى إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها كقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ الآية [يس: ٣٣] ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيى الأجساد بعد صيرورتها رميمًا يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد فى قبورها كما ينبت الحب فى الأرض، وهذا المعنى كثير فى القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أى والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعًا حسنًا كقوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر.

وقال البخارى [1]: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد بن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» رواه مسلم والنسائى من طرق عن أبى أسامة حماد بن أسامة به.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى فى ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ وهو إدريس النبى عليه السلام فيما يزعمون -وهو أول من خط بالقلم- ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحاق وغير واحد من أئمة النسب.

قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل وقال يزيد الرقاشى إنما سمى نوح لكثرة ما ناح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم

(١) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

على الإسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورة أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحًا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أى الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] إلى غير ذلك من الآيات ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ أى ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب العالمين رب كل شىء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغًا فصيحًا ناصحًا عالما بالله لا يدركهم أحد من خلق الله فى هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا: «أيها الناس إنكم مسئولون عنى فما أنتم قائلون؟» قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد اللهم اشهد».

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الآية، أى لا تعجبوا من هذا فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أى تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه فى موضع آخر ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أى السفينة كما قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾ كما قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أى عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ الآية [غافر: ٥١-٥٢].

وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحًا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم

السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب: بلغنى عن ابن عباس أنه نجا مع نوح فى السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وكان لسانه عربيًا رواه ابن أبى حاتم وروى متصلاً من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ثلاثة أرباع الحزب ١٦

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد فى البر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨]، وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥] وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهى جبال الرمل. قال محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة: سمعت عليًا يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيبًا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت هل رأيته؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين؟ والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه، قال: لا ولكنى قد حدثت عنه فقال الحضرمى وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة: أن مساكنهم كانت باليمن فإن هودًا عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبًا؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم؛ وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى فى ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الآية [ص: ٥] ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أى لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء فهو رب كل شىء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ أى لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى واذكروا

نعمة الله عليكم فى جعلكم من ذرية نوح الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أى زاد طولكم على الناس بسطة، أى جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله فى قصة طالوت: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أى نعمه ومننه عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والآلاء جمع: إلى، وقيل: ألى.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ الآية كقول الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصنامًا فصنم يقال له: صمداء وآخر يقال صمود وآخر يقال: له الهباء؛ ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ﴾ أى قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس قيل: هو مقلوب من رجز. وعن ابن عباس: معناه سخط وغضب ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أى أتحاجونى فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً؛ ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨] لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودًا عليه السلام، وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم موضعًا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهًا غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثًا بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١] ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾

[هود: ٥٣-٥٤] أى بجنون ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، وكان معروفًا عند المِلَلِ وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت له أم من قوم عاد واسمها: كلهدة بنة الخيبرى قال: فبعثت عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلاً إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان - قينتان لمعاوية- وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر، فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يصبحنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادًا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد وليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما
وإن الوحش تأتيهم جهارًا ... ولا تخشى لعادى سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لُقّوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا على الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل: بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثًا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد: اخترت رمادًا رمددًا، لا تبقى من عاد أحدًا لا والدًا تترك ولا ولدًا، إلا جعلته همدًا، إلا بنى اللوذية المهندا، قال: وبنو اللوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم. قال: وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عاد الآخرة. قال: وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختارها قيل: بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] يقول: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥] أى تهلك كل شىء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها: مميد فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت، فلما أفاقت قالوا: ما رأيت يا مميد؟ قالت: ريحًا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا كما قال الله تعالى. والحسوم: الدائمة فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود، وتلذ الأنفس، وإنها لتمر على عاد بالطعن ما بين السماء والأرض، وتدمغهم بالحجارة،

وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى: يا عبد الله إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفًا بين يدى رسول الله ﷺ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهًا قال: فجلست فدخل منزله أو قال: رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال: «هل بينكم وبين تميم شىء؟» قلت: نعم وكانت لنا الدائرة عليهم.

ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها إليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت: يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزًا فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصمًا أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى: «وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه - قلت: إن عادًا قحطوا فبعثوا وافدًا لهم يقال له بن عنز قيل: فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرًا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادًا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود فنودى منها: اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودى منها: خذها رمادًا رمددًا، لا تبقى من عاد أحدًا قال: فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا.

قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد، هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند، ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه، ورواه النسائى من حديث سلام بن أبى المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضًا عن أبى وائل عن الحارث بن حسان البكرى به، ورواه ابن جرير [٢] عن أبى كريب عن زيد بن حباب به، ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكرى فذكره، ورواه أيضًا [٣] عن أبى كريب عن أبى بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكرى فذكره، ولم أر فى النسخة أبا وائل والله أعلم.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢٤).
(٢) تفسير الطبري (٨/ ٢٢١).
(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢٢٠).

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع. قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» وقال أحمد [1] أيضًا: حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين [2] من غير وجه.

وقال الإمام أحمد [3] **أيضًا**: حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال: لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس: «الصلاة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئًا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا» لم يخرجه أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة اسمه: عمر بن سعد ويقال: عامر بن سعد والله أعلم، وقال الإمام أحمد [4]: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير

---

(١) أحمد (٥٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري حديث (٤٣٣)، ومسلم برقم (٢٩٨٠)، عن عبد الله بن دينار به.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٦٨)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٠)، حديث (٨٥١)، وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤)، وقال: رواه أحمد، وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٦)، حديث (١٤١٩٣) عن جابر، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥١)، حديث

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحدًا كان فى حرم الله» فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ﴾[الأعراف: ٧٣] أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦] وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أى قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها: الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيس القوم وهو: جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صمعر بن جلهس وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له: شهاب بن خليفة بن مخلاة بن لبيد بن جواس، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضًا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له: مهوش بن عنمة بن الزميل رحمه الله:

وكانت عصبة من آل عمرو ... إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعًا ... فهمّ بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكن الغواة من آل حجر ... تولوا بعد رشدهم ذئابا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يومًا وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾[القمر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[الشعراء: ١٥٥] وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره؛ ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقًا هائلا ومنظرًا رائعًا إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى عليه

(٣٢٤٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء فى خدورهن، وعلى الصبيان قلت: وهذا هو الظاهر، لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم.

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها: عنيزة ابنة غنم بن مجلز، وتكنى أم غنم كانت عجوزًا كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح، عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيا بن زهير بن المختار، ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة، فدعت صدوف رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك - ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جذع، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان ولد زنية، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه، وهو سالف، وإنما هو من رجل يقال له: صهياد ولكن ولد على فراش سالف. وقالت له: أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة! فعند ذلك انطلق «قدار بن سالف»، و«مصدع بن مهرج» فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، وكانوا رؤساء فى قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها، فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء، وقد كمن لها قدار بن سالف فى أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع فى أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس وجهًا فسفرت عن وجهها لقدار وذمّرته وشد على الناقة بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورغت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن فى لبتها فنحرها، وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعًا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا، فروى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصرى أنه قال: يا رب أين أمى؟ ويقال: إنه رغا ثلاث مرات، وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها، ويقال: بل اتبعوه فعقروه مع أمه فالله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة، وبلغ الخبر صالحًا، عليه السلام، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ الآية [هود: ٦٥]، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقًا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا ألحقناه بناقته! ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ الآية [النمل: ٤٩-٥٢]. فلما عزموا على ذلك، وتواطئوا عليه، وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه

وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفًا وتعجيلا قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح، عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذًا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب؟ وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى - قالوا: إلا جارية كانت مقعدة - واسمها: كلبة ابنة السلق، ويقال لها: الذريعة - وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح، عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب، أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًّا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت، ماتت، قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن تبعه، رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيمًا إذ ذاك في الحرم، فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله.

وقد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف. قال عبد الرزاق [1] عن معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه؛ فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن» وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى متصلاً من وجه آخر، كما قال محمد بن إسحاق، عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم فدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه»، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن، وهكذا رواه أبو داود [2]، عن يحيى بن معين، عن وهب بن جرير بن حازم، عن أبيه عن ابن إسحاق به.

قال شيخنا أبو الحجاج المزي: وهو حديث حسن عزيز. قلت: تفرد بوصله «بجير بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث.

قال يحيى بن معين: ولم أسمع أحدًا روى عنه غير إسماعيل بن أمية. قلت: وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو، مما أخذه من الزاملتين. قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله أعلم.

(١) رواه الطبري (٨/ ٢٣٠).
(٢) أخرجه أبو داود، حديث (٣٠٨٨).

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريعًا وتوبيخًا وهم يسمعون ذلك، كما ثبت فى الصحيحين [١] أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثًا، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب بدر، فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وفى السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم: «بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم» [٢].

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: فلم تنتفعوا بذلك؛ لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحًا، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّٰصِحِينَ﴾ وقد ذكر بعض المفسرين: أن كل نبى هلكت أمته، كان يذهب فيقيم فى الحرم، حرم مكة، والله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر، أى واد هذا؟» قال: هذا وادى عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات خُمْرٍ خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق». هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرجه أحد منهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

يقول تعالى ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿لوطا﴾ أو تقديره: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾. ولوط هو ابن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل «سدوم» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده، ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سدوم» عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار: فى قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَٰلَمِينَ﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ١٨٨)، من قول ابن إسحاق.

حتى كان قوم لوط.

وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى، بانى جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكرًا يعلو ذكرًا؛ ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أى عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشىء فى غير محله؛ ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أى لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك. وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضًا.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أى: ما أجابوا لوطًا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالما، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ من أدبار الرجال وأدبار النساء. وروى مثله عن ابن عباس أيضًا.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى: فأنجينا لوطًا وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هنا: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أى الباقين. ومنهم من فسر ذلك ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الهالكين، وهو تفسير باللازم.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصى الله عز وجل ويكذب رسله. وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللائط يلقى من شاهق، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط.

وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصنًا أو غير محصن. وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله.

والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذى وابن ماجه[1] من حديث الدراوردى عن عمرو بن أبى عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وقال آخرون: هو كالزانى، فإن كان محصنًا رجم، وإن لم يكن محصنًا جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى. وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذًا لبعض السلف، وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن إبراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال: واسمه بالسريانية: يثرون. قلت: مدين تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أى قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان وتدليسًا، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[المطففين: ١-٦] وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه. ثم قال تعالى إخبارًا عن شعيب، الذى يقال له: خطيب الأنبياء؛ لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى، بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم.

قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه برقم (٢٥٦١)، وأحمد برقم (٢٧٢٢) عن عكرمة عن ابن عباس انظر: إرواء الغليل رقم (٢٣٥٠).

صِرَٰطٍ﴾ وهو الطريق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أى من الأمم الخالية والقرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال باجتراثهم على معاصى الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أى قد اختلفتم على ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ أى انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وبينكم أى يفصل، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

الجزء ٩ الحزب ١٧

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبًا ومن معه من المؤمنين، فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه. وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادًا، وهذا تعبير منه عن اتباعهم.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾، وهذا رد إلى المشيئة، فإنه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علمًا، ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أى: احكم بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أى خير الحاكمين، فإنك العادل الذى لا يجور أبدًا.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم، وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فلهذا عقبه بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبًا وأصحابه وتوعدهم بالجلاء، كما أخبر عنهم فى سورة «هود» فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]. والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به فى قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ

فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ الآية[هود: ٨٧] فجاءت الصيحة فأسكتتهم.

وقال تعالى إخبارًا عنهم فى سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: ١٨٩]، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الآية[الشعراء: ١٨٧]، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾[الشعراء: ١٨٩]، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجسام ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ أى كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾

أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال، وقال مقرعًا لهم وموبخًا: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ أى قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾

يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعنى ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾، أى يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئًا من الذى أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ أى حولنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشىء إذا كثر، ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا، ليتضرعوا وينيبوا إلى الله، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت فى الصحيحين: «عجبًا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء

شكر فكان خيرًا له» [1] فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء؛ ولهذا جاء فى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًا من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدرى فيم ربطه أهله، ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى على بغتة، وعدم شعور منهم، أى أخذناهم فجأة كما فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر».

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أى ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الآية [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أى ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، أى الكافرة ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أى عذابنا ونكالنا، ﴿بَيَٰتًا﴾ أى ليلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أى فى حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصرى، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أو لم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وكذا قال مجاهد وغيره، وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها: يقول تعالى: أو لم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا

(١) أخرجه مسلم حديث (٢٩٩٩)، وأحمد برقم (١٨٤٥٥).

أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكيرًا.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقال: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٤-٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨] أي: هل ترى لهم شخصًا أو تسمع لهم صوتًا؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٥-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه، ولهذا عقب بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي من أخبارها، ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠٠-١٠١].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ الباء سببية، أي فما كانوا ليؤمنوا بما

جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٩-١١٠]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أى لأكثر الأمم الماضية ﴿مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ أى ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، فأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولاحجة، لا من عقل ولا شرع، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك، كما جاء فى صحيح مسلم [١]: يقول الله تعالى: «إنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» وفى الصحيحين [٢]: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث.

وقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال: كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أى فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، وكذا قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية عن أبى بن كعب عن أنس، واختاره ابن جرير، وقال السدى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهًا، وقال مجاهد فى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾: هذا كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٢٨].

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أى الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أى بحججنا ودلائلنا البينة إلى فرعون، وهو ملك مصر فى زمن موسى، ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أى قومه، ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أى جحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أى: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أى: انظر كيف فعلنا بهم، أغرقناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أولياء الله - موسى وقومه - من المؤمنين به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ أى أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربه ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى جدير بذلك وحرى به، قالوا: و«الباء» و«على» يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وجاء على حال حسنة و«بحال حسنة، وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق.

وقرأ آخرون من أهل المدينة: «حقيق علىّ» بمعنى: واجب وحق عَلَىّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أى أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبى كريم إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أى قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقًا فيما ادعيت.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

قال على بن أبى طلحة [1] عن ابن عباس فى قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك، وفى حديث «الفتون»، من رواية يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد، عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه، اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل.

وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة.

وقال السدى فى قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ الثعبان: الذكر من الحيات، فاتحة فاها، واضعة لحيها، الأسفل فى الأرض، والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها ذعر منها، ووثب وأحدث، ولم يكن يحدث قبل ذلك، وصاح يا موسى، خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بنى إسرائيل، فأخذها موسى، عليه السلام، فعادت عصًا، وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا.

وقال وهب بن منبه: لما دخل موسى على فرعون، قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم، قال: ﴿أَلَمْ

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٠١)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٢٠).

نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؟ [الشعراء: ١٨] قال: فرد إليه موسى الذى رد، فقال فرعون: خذوه فبادر موسى ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا، قتل بعضهم بعضًا، وقام فرعون منهزمًا حتى دخل البيت. رواه ابن جرير والإمام أحمد، فى كتابه «الزهد»، وابن أبى حاتم. وفيه غرابة فى سياقه، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أى أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ الآية [النمل: ١٢]. وقال ابن عباس فى حديث «الفتون»: من غير سوء يعنى من غير برص، ثم أعادها إلى كمه، فعادت إلى لونها الأول. وكذا قال مجاهد وغير واحد.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أى قال الملأ - وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون - موافقين لقول فرعون فيه، بعدما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوا وقالوا كمقالته، وتشاوروا فى أمره، كيف يصنعون فى أمره، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سببًا لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذى خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] فلما تشاوروا فى شأنه، وائتمروا بما فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه. ﴿وَأَرْسِلْ﴾ أى ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ أى فى الأقاليم ومدائن ملكك، ﴿حَاشِرِينَ﴾ أى من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وقد كان السحر فى زمانهم غالبًا كثيرًا ظاهرًا، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تشعبذه سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٥٧-٦٠] وقال تعالى ههنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى، عليه السلام، إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلًا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أى قبلك. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم موسى، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا ۖ﴾ أى: أنتم أولاً، قيل: الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوا، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع فى النفوس، وكذا كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦-٦٩].

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً. قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. وقال محمد بن إسحاق: صف خمسة عشر ألف ساحر، مع كل ساحر حباله وعصيه، وخرج موسى، عليه السلام، معه أخوه يتكى على عصاه، حتى أتى الجمع، وفرعون فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته، ثم قال السحرة: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كل رجل منهم ما فى يده من الحبال والعصى، فإذا حيات كأمثال الجبال، قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضًا. وقال السدى: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، وليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ يقول: فرقوهم أى من الفرق.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبى بزة قال: جمع فرعون سبعين ألف ساحر، فألقوا سبعين ألف حبل، وسبعين ألف عصا، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

ربع الحزب ١٧

﴿۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، فى ذلك الموقف العظيم، الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه، ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أى تأكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. **قال ابن عباس:** فجعلت لا تمر بشىء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء، ليس هذا بسحر، فخروا سجدًا وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: جعلت تبتع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة، حتى ما يرى بالوادى

قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى، فإذا هى عصًا فى يده كما كانت، ووقع السحرة سجدًا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، لو كان هذا ساحرًا ما غلبنا. وقال القاسم بن أبى بزة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه، فإذا هى ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع حبالهم وعصيهم، فألقى السحرة عند ذلك سجدًا، فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره فى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أى إن غلبته لكم فى يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضًا منكم لذلك، كقوله فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون فى مدائن ملكه ومعاملة سلطنته، فجمع سحرة متفوقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل؛ ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور فى مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون، وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدًا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترًا وتدليسًا على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه فى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم. وقال السدى فى تفسيره بإسناده المشهور عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ قال: التقى موسى، عليه السلام، وأمير السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى، وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتنى لأومنن بك ولأشهدن أنك حق، وفرعون ينظر إليهما، قالوا: فلهذا قال ما قال.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أى تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقال فى الآية الأخرى: ﴿فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أى على الجذوع. قال ابن عباس: وكان أول من صلب، وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف فرعون.

وقول السحرة: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أى قد تحققنا أنا إليه راجعون، وعذابه أشد من عذابك،

ونكاله على ما تدعونا إليه، اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر، أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى: عمنا بالصبر على دينك، والثبات عليه، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: متابعين لنبيك موسى، عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٢-٧٥]، فكانوا فى أول النهار سحرة، فصاروا فى آخره شهداء بررة. قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج: كانوا فى أول النهار سحرة، وفى آخره شهداء.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ۝ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه، وما أضمروه لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أى لفرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أى: أتدعهم ليفسدوا فى الأرض؟ أى يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، يا لله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون، ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، قال بعضهم: «الواو» هاهنا حالية، أى: أتذره وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، حكاه ابن جرير. وقال آخرون: هى عاطفة، أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك؟ وقرأ بعضهم: «إلاهتك» أى عبادتك، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وغيره، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده.

قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبده فى السر. وقال فى رواية أخرى: كان له جنانة فى عنقه معلقة يسجد لها.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: وآلهته، فيما زعم ابن عباس، كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم السامرى عجلاً جسدًا له خوار.

فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى، عليه السلام، حذرًا من وجوده، فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون.

وهكذا عومل فى صنيعه أيضًا، لما أراد إذلال، بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد، أعزهم الله وأذله، وأرغم أنفه، وأغرقه وجنوده.

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾،

ووعدهم بالعاقبة، وأن الدار ستصير لهم فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أى قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى، ومن بعد ذلك، فقال منبهًا لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية، وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر، عند حلول النعم وزوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أى اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قال مجاهد: وهو دون ذلك.

وقال أبو إسحاق، عن رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ أى من الخصب والرزق ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أى: هذا لنا بما نستحقه، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى جدب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أى: هذا بسببهم وما جاءوا به. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصائبهم عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال ابن جريج، عن ابن عباس قال: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أى: إلا من قبل الله.

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقولون: أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾. اختلفوا فى معناه، فعن ابن عباس فى رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار، وبه قال الضحاك بن مزاحم، وعن ابن عباس فى رواية أخرى: هو كثرة الموت. وكذا قال عطاء. وقال مجاهد: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: الماء، والطاعون على كل حال.

وقال ابن جرير [1]: حدثنا ابن هشام الرفاعى، حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطوفان الموت».

---

(١) رواه الطبرى (٩/ ٣١) قال الحافظ فى الفتح (٨/ ٣٠٠): عند ابن مردويه بإسنادين ضعيفين.

وكذا رواه ابن مردويه، من حديث يحيى بن يمان به، وهو حديث غريب. وقال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩-٢٠]. وأما الجراد فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في الصحيحين [١] عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد. وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه [٢] من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». ورواه أبو القاسم البغوي، عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبي تمام الأبلي عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعًا مثله، وروى أبو داود [٣] عن محمد بن الفرج عن محمد بن زبرقان الأهوازي عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا آكله، ولا أحرمه». وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه. وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد، من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوي حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد، حدثنا يحيى بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يأكل الجراد، ولا الكلوتين، ولا الضب، من غير أن يحرمها، أما الجراد: فرجز وعذاب؛ وأما الكلوتان: فلقربهما من البول. وأما الضب فقال: «أتخوف أن يكون مسخًا» ثم قال: غريب، لم أكتبه إلا من هذا الوجه. وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشتهيه ويحبه، فروى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه [٤] حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال، سمع أنس بن مالك يقول: كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق. وقال أبو القاسم البغوي: حدثنا داود بن رشيد، حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القيني حدثني أبي عن صدي بن عجلان عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مريم بنت عمران، عليها السلام، سألت ربها عز وجل، أن يطعمها لحمًا لا دم له، فأطعمها الجراد، فقالت: اللهم أعشه بغير رضاع، وتابع بينه بغير شياع». وقال نمير: الشياع: الصوت. وقال أبو بكر بن أبي داود: حدثنا أبو تقي هشام بن عبد الملك المزني، حدثنا بقية بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي زهير النميري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاتلوا الجراد، فإنه جند الله الأعظم». غريب جدًا [٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٩٥)، ومسلم (١٩٥٢)، وأبو داود (٣٨١٢)، والترمذي برقم (١٨٢٢)، والنسائي برقم (٤٣٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢١٨)، وأحمد (٥٦٩٠).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣/ ٣٥٧) حديث (٣٨١٣) انظر: ضعيف الجامع رقم (١٠٩٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٠٧٣)، حديث (٣٢٢٠).

في إسناده سعيد بن المرزبان، وهو ضعيف. انظر: مصباح الزجاجة (٣/ ٢٣٧).

(٥) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٤١)، حديث (٧٦٣١) عن أبي أمامة، وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٩) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه بقية وهو ثقة ولكنه مدلس.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، وتدع الخشب. وروى ابن عساكر من حديث على بن زيد الخرائطى، عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعى يقول: خرجت إلى الصحراء، فإذا أنا برِجْل من جراد فى السماء، وإذا برجل راكب على جرادة منها، وهو شاك فى الحديد، وكلما قال بيده هكذا، مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها، الدنيا باطل باطل ما فيها.

وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى، حدثنا محمد بن الحسن بن زياد، حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال: سئل شريح القاضى عن الجراد، فقال: قبح الله الجرادة، فيها خلقة سبعة جبابرة: رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وقدمنا عند قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦] حديث حماد بن سلمة، عن أبى المهزم عن أبى هريرة قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصى، ونحن محرمون، فسألنا رسول الله ﷺ فقال[1]: «لابأس بصيد البحر». وروى ابن ماجه[2]، عن هارون الحمانى عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاثة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء». فقال له جابر: يا رسول الله، أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: «إنما هو نثرة حوت فى البحر». قال هشام: أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس، أنه يفقس كله جرادًا طيارًا. وقدمنا عند قوله: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، حديث عمر، رضى الله عنه[3]: «أن الله خلق ألف أمة، ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر، وإن أولها هلاكًا الجراد». وقال أبو بكر بن أبى داود: حدثنا يزيد بن المبارك، حدثنا عبد الرحمن بن قيس، حدثنا سالم بن سالم، حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك، عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا وباء مع السيف، ولا نجاء مع الجراد». حديث غريب.

وأما ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ فعن ابن عباس: هو السوس الذى يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبا - وهو الجراد الصغير الذى لا أجنحة له، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: البراغيث.

وقال ابن جرير: «القمل» جمع واحدتها «قملة»، وهى دابة تشبه القمل، تأكلها الإبل، فيما بلغنى، وهى التى عناها الأعشى بقوله:

قوم يعالج قملاً أبناؤهم ... وسلاسلاً أجدًا وبابًا موصدا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٢٢١)، والترمذي، حديث (١٨٢٣).

(٣) سبق تخريجه.

قال: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب «الحمنان»، واحدتها «حمنانة»، وهى صغار القردان فوق القمقامة.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثنا ابن حميد الرازى، حدثنا يعقوب القمى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: لما أتى موسى، عليه السلام، فرعون قال له: أرسل معى بنى إسرائيل، فلم يرسلهم فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئًا، خافوا أن يكون عذابًا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فأنبت لهم فى تلك السنة شيئًا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد، فسلطه على الكلأ، فلما رأوا أثره فى الكلأ، عرفوا أنه لا يبقى الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الجراد فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل، فداسوا وأحرزوا فى البيوت، فقالوا: قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذى يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى، فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة. فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل، فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم، فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون، إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن، لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان فى أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا فشكوا إلى فرعون، فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال: إنه قد سحركم، فقالوا: من أين سحرنا، ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئًا من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطًا؟ فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل. وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدى وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبًا مغلولاً ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين، وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم آيات مفصلات. فأرسل الطوفان - وهو الماء ففاض على وجه الأرض - ثم ركد، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئًا، حتى جهدوا جوعًا، فلما بلغهم ذلك ﴿قَالُوا يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فدعا موسى ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر، فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد، حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لى أن موسى، عليه السلام، أمر أن يمشى إلى كثيب حتى

يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم، فضربه بها، فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء، إلا عاد دمًا عبيطًا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي أنبأنا النضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمرو قال: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على قوم فرعون، انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار، يطلب بذلك مرضاة الله، فأبدلهن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء، وجعل نقيقهن التسبيح، وروى من طريق عكرمة، عن ابن عباس، نحوه. وقال زيد بن أسلم: يعني بالدم: الرعاف، رواه ابن أبي حاتم.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، وهو البحر الذي فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦] وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨] وعن الحسن البصري وقتادة، في قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: الشام.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ قال مجاهد وابن جرير: وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]. وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: يبنون.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أى فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم. قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصنامًا على صور البقر؛ فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أى هالك ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾»[1]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى: قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبى الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها، فقال النبى ﷺ: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم». أورده ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعًا.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يذكرهم موسى، عليه السلام، نعم الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها فى البقرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد، حديث (٢١٣٩٠).

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى ممتنًّا على بنى إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى، عليه السلام، وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشرة أربعين.

وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة، والعشر عشر ذى الحجة، قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره. فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠] الآية، فحينئذٍ استخلف موسى عليه السلام على بنى إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبى شريف كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله تعالى، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾. وقد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. وقوله تعالى إخبارًا عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقيل: إنها لنفى التأبيد فى الدنيا جمعًا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤيا فى الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقد تقدم ذلك فى الأنعام.

وفى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: يا موسى، إنه لا يرانى حى إلا مات، ولا يابس إلا تدهده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى [1] فى تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن سهيل الواسطى، حدثنا قرة بن عيسى، حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبى ﷺ قال: «لما تجلى ربه للجبل، أشار

(١) رواه الطبرى (٩/ ٥٣) عن أنس.

بأصبعه، فجعله دكًا». وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة. هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم، ثم قال: حدثنى المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: «هكذا بأصبعه - ووضع النبى ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر - فساخ الجبل». هكذا وقع فى هذه الرواية «حماد بن سلمة عن ليث عن أنس»، والمشهور: «حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس»، كما قال ابن جرير: حدثنى المثنى حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: ووضع الإبهام قريبًا من طرف خنصره، قال: «فساخ الجبل» - قال حميد لثابت: يقول هكذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس، وأنا أكتمه؟. وهكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبرى حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾: قال: قال: «هكذا» - يعنى أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا أبا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثنى به أنس بن مالك عن النبى ﷺ، يقول: ما تريد إليه؟!.

وهكذا رواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به. وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حمادو وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طرق، عن حماد بن سلمة به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد بن الحسن بن محمد بن على الخلال عن محمد بن على بن سويد عن أبى القاسم البغوى عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكرهً وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعًا، وهذا ليس بشىء، لأن داود بن المحبر كذاب، رواه الحافظان أبو القاسم الطبرانى وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعًا بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلمانى عن أبيه عن ابن عمر مرفوعًا ولا يصح أيضًا. رواه الترمذى وصححه الحاكم، وقال: على شرط مسلم. وقال السدى: عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: ترابًا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: مغشيا عليه، رواه ابن جرير. وقال قتادة: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال: ميتًا. وقال سفيان الثورى: ساخ الجبل فى الأرض، حتى وقع فى البحر فهو يذهب معه، وقال سنيد: عن حجاج بن محمد الأعور، عن أبى بكر الهذلى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: انقعر فدخل تحت الأرض، فلا يظهر إلى يوم القيامة. وجاء فى بعض الأخبار أنه ساخ فى الأرض، فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة، رواه ابن مردويه.

وقال ابن أبي حاتم [1]: حدثنا عمر بن شبة حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى حدثنا عبد

(١) أورده الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٠/ ٤٤٠) عن أنس وقال: هذا الحديث غريب جدًا ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد.

العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله للجبال، طارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة، بالمدينة: أحد، وورقان، ورضوى. ووقع بمكة: حراء، وثبير، وثور». وهذا حديث غريب، بل منكر. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلج حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صمًّاء ملسًا، فلما تجلى الله لموسى على الطور دك، وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف. وقال الربيع بن أنس: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور، صار مثل دك من الدكاك. وقال بعضهم: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: فتّه.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾: فإنه أكبر منك وأشد خلقًا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقًا. وقال عكرمة: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال: نظر الله إلى الجبل، فصار صحراء ترابًا. وقد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير، وقد ورد فيها حديث مرفوع، رواه ابن مردويه. والمعروف أن «الصعق» هو الغشى ههنا كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان صحيحًا في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨]، فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾، والإفاقة إنما تكون من غشى.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد في الدنيا إلا مات. وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه لا يراك أحد، وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه، وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثرًا طويلاً فيه غرائب وعجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبي ﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري[1] في صحيحه ها هنا، فقال: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إني مررت باليهودي فسمعته يقول: والذي اصطفى موسى على البشر. قال: وعلى محمد. وأخذتني غضبة، فلطمته، فقال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟». وقد رواه البخاري في أماكن كثيرة من

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٤)، وأبو داود (٤٦٦٨).

صحيحه، ومسلم فى أحاديث الأنبياء وأبو داود فى كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى الحسن المازنى الأنصارى المدنى عن أبيه عن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى به.

وأما حديث أبى هريرة [١] **فقال الإمام أحمد فى مسنده**: حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذى اصطفى محمدًا على العالمين. وقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ممسك بجانب العرش، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثنى الله عز وجل؟». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث الزهرى، به.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا، رحمه الله: أن الذى لطم اليهودى فى هذه القضية هو أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، ولكن تقدم فى الصحيحين أنه رجل من الأنصار، وهذا هو أصح وأصرح، والله أعلم. والكلام فى قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضبية والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة»، الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به.

وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلى للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب، تبارك وتعالى، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور؟» وقد روى القاضى عياض فى أوائل كتابه «الشفاء» بسنده عن محمد بن محمد بن مرزوق [٢]: حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى، عليه السلام، كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء، مسيرة عشرة فراسخ»، ثم قال: ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى، انتهى ما قاله، وكأنه صحح هذا الحديث، وفى صحته نظر، ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون، ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهى إلى منتهاه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣)، وأبو داود (٤٦٧١)، وأحمد (٧٥٣٢)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٦٥)، حديث (٧٧)، وأورده الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٣)، وقال: رواه الطبراني في الصغير وفيه الحسين بن أبى جعفر الحفرى وهو متروك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى، وبكلامه ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أى من الكلام والمناجاة ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أى على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء، قيل: كانت الألواح من جوهر، وإن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكامًا مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[القصص: ٤٣].

وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، والله أعلم. وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾

قال سفيان بن عيينة: حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. وقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أى سترون عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتى، كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب؟.

قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غدًا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمرى، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصرى.

وقيل: معناه ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أى من أهل الشام، وأعطيكم إياها.

وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى، ويتكبرون على الناس بغير حق،

أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيى ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذلك الجهل أبدًا. وقال سفيان بن عيينة فى قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتى. قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا الخطاب لهذه الأمة. قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أى طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أى كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ أى لا يعلمون شيئًا مما فيها. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ أى من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله. وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أى إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرٌّ، وكما تَدين تُدان.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلاً جسدًا له خوار، والخوار: صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخبارًا عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥]. وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨]، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل، وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شىء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسدًا له خوار لا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود [1]، عن

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٠)، وأحمد (٢١١٨٦) عن أبى الدرداء.

أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمى ويصم».

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أى ندموا على ما فعلوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالتاء المثناة من فوق، ﴿رَبُّنَا﴾ منادى ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أى من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: والأسف: أشد الغضب. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ يقول: بئس ما صنعتم فى عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم. وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ قيل: كانت الألواح من زمرد. وقيل: من ياقوت. وقيل: من برد. وفى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة». ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبًا على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفًا وخلفًا. وروى ابن جرير عن قتادة فى هذا قولاً غريبًا، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالرد، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة.

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ خوفًا أن يكون قد قصر فى نهيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٢-٩٤] وقال هنا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى لا تسوقنى سياقهم، وتجعلنى معهم، وإنما قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾؛ ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وقال ابن أبى حاتم[1]: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل أن قومه فتنوا بعده، فلم يلق

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩٧)، (٦٢١٤) عن ابن عباس، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٢) حديث (٣٤٣٥).

الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل فى عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضًا، كما تقدم فى سورة البقرة ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤].

وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلة وصغارًا فى الحياة الدنيا، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصرى: إن ذل البدعة على أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين. وهكذا روى أيوب السختيانى، عن أبى قلابة الجرمى، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فقال: هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة. وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ﴾ أى يا محمد، يا رسول التوبة ونبى الرحمة، ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أى: من بعد تلك الفعلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عزرة عن الحسن العرنى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك - يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة، ثم يتزوجها - فتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أى سكن ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أى غضبه على قومه ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أى: التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة لله وغضبًا له ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجودًا فى خزائن الملوك لبنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها، وهى من جوهر الجنة، فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضمن الرهبة معنى الخضوع، ولهذا عداها باللام.

وقال قتادة: فى قوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون - السابقون أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة، رب

اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرأونها وكان من قبلهم يقرأون - كتابهم - نظرًا، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئًا ولم يعرفوه، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئًا، لم يعطه أحدًا من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتى: قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلون الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه، بعث الله عليها نارًا فأكلتها، وإن ردت عليه تركت، فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم - قال: رب فاجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة، رب، اجعلهم أمتى. قال: تلك أمة أحمد. قال: رب، إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفوعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبى الله موسى عليه السلام نبذ الألواح - وقال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ثلاثة أرباع الحزب ١٧

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، وكان فيما دعوا الله أن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا ولا تعطه أحدًا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ الآية. وقال السدى: إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ثلاثين من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدًا ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة: ٥٥]، يا موسى ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فإنك قد كلمته فأرناه ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] فماتوا فقام موسى يبكى ويدعوالله ويقول: رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾

وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلًا، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا، وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء، لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون - فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشى الجبل كله

ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا: لموسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ الرجفة - وهى الصاعقة - فالتقت أرواحهم، فماتوا جميعًا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾ قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل؟.

وقال سفيان الثورى [1]: حدثنى أبو إسحاق، عن عمارة بن عبيد السلولى، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: انطلق موسى وهارون وشبر وشبير، فانطلقوا إلى سفح جبل، فنام هارون على سرير، فتوفاه الله، عز وجل، فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفاه الله، عز وجل، قالوا: أنت قتلته، حسدتنا على خلقه ولينه - أو كلمة نحوها - قال: فاختاروا من شئتم. قال: فاختاروا سبعين رجلاً. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾، فلما انتهوا إليه قالوا: يا هارون، من قتلك؟ قال: ما قتلنى أحد، ولكن توفانى الله. قالوا: يا موسى، لن تعصى بعد اليوم، فأخذتهم الرجفة. قال: فجعل موسى، يرجع يمينًا وشمالاً، وقال: يا ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ قال: فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم. هذا أثر غريب جدًّا، وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه. وقد رواه شعبة، عن أبى إسحاق عن رجل من بنى سلول عن على، فذكره.

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنهم أخذتهم الرجفة، لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل، ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك. قاله ابن عباس: وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف، ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ الغفر هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه فى مثله فى المستقبل. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ أى لا يغفر الذنب إلا أنت، ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أى أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة فى سورة البقرة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أى تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد: وهو كذلك لغة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبى عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن على

(١) رواه الطبري (٩/ ٧٣).

قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾. جابر - هو ابن يزيد الجعفى؛ ضعيف.

يقول تعالى مجيبًا لموسى فى قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ قال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أى: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾: آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبى، حدثنا الجريرى عن أبى عبد الله الجشمى، حدثنا جندب - هو ابن عبد الله البجلى، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم، ارحمنى ومحمدًا، ولا تشرك فى رحمتنا أحدًا. فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون: هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله، عز وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق؛ جنها وإنسها وبهائمها، وأخر عنده تسعًا وتسعين رحمة، أتقولون: هو أضل أم بعيره؟» رواه أحمد وأبو داود، عن على بن نصر، عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

وقال الإمام أحمد [٢] أيضًا: حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان، عن أبى عثمان، عن سلمان عن النبى ﷺ قال: «إن لله، عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». تفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث سليمان - هو ابن طرخان - وداود بن أبى هند، كلاهما، عن أبى عثمان - واسمه: عبد الرحمن بن مِلّ - عن سلمان هو الفارسى، عن النبى ﷺ، به. وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا عفان، حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبى صالح عن أبى هريرة؛ عن النبى ﷺ قال: «إن لله مائة رحمة، عنده تسعة وتسعون، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه». تفرد به أحمد من هذا الوجه. وقال أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد، حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لله مائة رحمة، فقسم منها جزءًا واحدًا بين الخلق به يتراحم الناس والوحش والطير». ورواه ابن ماجه من حديث أبى معاوية عن الأعمش به، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى [٤]: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا سعد أبو غيلان الشيبانى عن حماد بن أبى سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الفاجر فى دينه، الأحمق فى معيشته، والذى نفسى بيده، ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذنبه،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٥)، وأحمد (٤/ ٣١٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٥٣)، وأحمد حديث (٢٣٢٠٨)، وأحمد (١١١٣٧) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد (١١١٣٦)، وابن ماجه حديث (٤٢٩٤).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٣/ ١٦٨) حديث (٣٠٢٢) عن حذيفة.

والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه». هذا حديث غريب جدًا، وسعد هذا لا أعرفه.

وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، يعنى: فسأوجب حصول رحمتى منّةً منى وإحسانًا إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، أى: الشرك والعظائم من الذنوب. قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قيل: زكاة النفوس. وقيل: الأموال. ويحتمل أن تكون عامة لهما؛ فإن الآية مكية ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾: وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم، كما روى الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى صخر العقيلى حدثنى رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه. قال: فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون فتبعتهم فى أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشرًا التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأجمله فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى؟» فقال برأسه هكذا أى لا فقال ابنه: إى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال: «أقيموا اليهودى عن أخيكم»، ثم ولى كفنه والصلاة عليه. هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح، عن أنس.

وقال الحاكم صاحب المستدرك: أخبرنا محمد - عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس، حدثنا عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبى أمامة الباهلى عن هشام بن العاص الأموى قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة - يعنى غوطة دمشق - فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغسانى، فدخلنا عليه، فإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسوله نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولاً وإنما بعثنا إلى الملك، فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم نكلم الرسول فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك قال: فأذن لنا فقال: تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام فإذا عليه ثياب سود فقال له هشام: وما هذه التى عليك؟ فقال: لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا: ومجلسك هذا والله لنأخذنه منك ولنأخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله، أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملىء وجهه سوادًا

فقال: قوموا وبعث معنا رسولاً إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبًا من المدينة قال لنا الذى معنا: إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال، قلنا: والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا، فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأنخنا فى أصلها وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر فالله يعلم لقد تنفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح، قال: فأرسل إلينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا: أن ادخلوا، فدخلنا عليه وهو على فراش له، وعنده بطارقة من الروم، وكل شىء فى مجلسه أحمر، وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة، فدنونا منه فضحك فقال: ما عليكم لو حييتمونى بتحيتكم فيما بينكم؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا: إن تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك وتحيتك التى تحيا بها لا يحل لنا أن نحييك بها قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم. قال: فكيف تحيون ملككم؟ قلنا: بها قال: فكيف يرد عليكم؟ قلنا: بها

قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله، والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم - لقد تنفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها، قال: فهذه الكلمة التى قلتموها حيث تنفضت الغرفة، أكلما قلتموها فى بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتم انتفض كل شىء عليكم، وإنى قد خرجت من نصف ملكى. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة، وأنها تكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد فأخبرناه. ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا، فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثًا، فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا فأعدناه. ثم دعا بشىء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة، فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح بيتًا وقفلاً، فاستخرج حريرة سوداء، فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخم العينين، عظيم الأليتين لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا قال: هذا آدم، عليه السلام، وإذا هو أكثر الناس شعرًا، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يبتسم فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا قال: هذا إبراهيم عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فإذا فيه صورة بيضاء، وإذا - والله - رسول اللهﷺ فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، هذا محمد رسول اللهﷺ قال: وبكينا. قال: والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس، وقال: والله إنه لهو قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت ولكنى عجلته لكم لأنظر ما عندكم، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين، حديد النظر عابس متراكب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا موسى، عليه السلام. وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين فى عينيه قبل فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا هارون بن عمران، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة

كأنه غضبان فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا لوط، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج منه حريرة بيضاء فإذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسحاق، عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة بيضاء فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خال فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يعقوب عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه، أقنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف فى وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إسماعيل جد نبيكم، ﷺ.

ثم فتح بابًا آخر، فاستخرج حريرة بيضاء فإذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا يوسف عليه السلام، ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين، ضخم البطن ربعة متقلد سيفًا فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا داود، عليه السلام. ثم فتح بابًا آخر فاستخرج حريرة بيضاء، فيها صورة رجل ضخم الأليتين، طويل الرجلين راكب فرسًا فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا سليمان بن داود، عليهما السلام. ثم فتح بابًا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا عيسى ابن مريم، عليه السلام. قلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأنا نعلم أنها على ما صورت عليه الأنبياء، عليهم السلام، لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله.

فقال: إن آدم، عليه السلام، سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم، فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال، ثم قال: أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى، وإنى كنت عبدًا لأشركم ملكه، حتى أموت، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا، قال: فبكى أبو بكر، وقال: مسكين لو أراد الله به خيرًا لفعل ثم قال: أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم. وهكذا أورده الحافظ الكبير البيهقى، رحمه الله، فى كتاب «دلائل النبوّة»، عن الحاكم إجازة، فذكره، وإسناده لا بأس به.

وقال ابن جرير [1]: حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال: أجل والله، إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزًا للأميين أنت عبدى ورسولى اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولو: لا إله إلا الله ويفتح به قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا وأعينًا عميًا، قال عطاء: ثم لقيت كعبًا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفًا إلا أن كعبًا قال بلغته: قال قلوبًا غلوفيًا وآذانًا صـــموميًا وأعينًا عموميًا، وقد رواه البخارى فى صحيحه [2] عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن على فذكر بإسناده

(١) رواه الطبري (٩/ ٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢١٢٥)، وأحمد حديث (٦٥٨٥).

نحوه، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد فى بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى (١): حدثنا موسى بن هارون، حدثنا محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى، حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم - من ولد جبير بن مطعم - قال: حدثتنى أم عثمان بنت سعيد - وهى جدتى - عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه جبير بن مطعم قال: خرجت تاجرًا إلى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقينى رجل من أهل الكتاب فقال: هل عندكم رجل نبيًّا؟ قلت: نعم. قال: هل تعرف صورته إذا رأيتها؟ قلت: نعم. فأدخلنى بيتًا فيه: صور، فلم أر صورة النبى ﷺ، فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال: فيم أنتم؟ فأخبرناه، فذهب بنا إلى منزله، فساعة ما دخلت نظرت إلى صورة النبى ﷺ، وإذا رجل آخذ بعقب النبى ﷺ قلت: من هذا الرجل القابض على عقبه؟ قال: إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى، فإنه لا نبى بعده، وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه. وقال أبو داود: حدثنا عمر بن حفص أبو عمرو الضرير حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلى عن الأقرع مؤذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (٢): بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر: هل تجدنى فى الكتاب؟ قال: نعم. قال: كيف تجدنى؟ قال: أجدك قرنًا. فرفع عمر الدرة وقال: قرن مه؟ قال: قرن حديد، أمير شديد، قال: فكيف تجد الذى بعدى؟ قال: أجد خليفة صالحًا غير أنه يؤثر قرابته، قال عمر: يرحم الله عثمان ثلاثًا قال: كيف تجد الذى بعده؟ قال: أجده صدأ حديد، قال: فوضع عمر يده على رأسه وقال: يا دفراه يا دفراه قال: يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، هذه صفة الرسول ﷺ فى الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] فأرعها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهى عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال الإمام أحمد (٣): حدثنا أبو عامر - هو العقدى عبد الملك بن عمرو - حدثنا سليمان هو ابن بلال - عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ١٢٥) حديث (١٥٣٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٣٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم.

(٢) أخرجه أبو داود حديث (٤٦٥٦).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٧)، وقال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح.

وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه» . هذا إسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن على رضى الله عنه قال: إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثًا فظنوا به الذى هو أهدى، والذى هو أهنى، والذى هو أتقى. ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى، عن أبى عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثًا فظنوا به الذى هو أهداه وأهناه وأتقاه.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كلحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له.

وكذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلا أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها، وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته، وفيه كلام طويل أيضًا.

وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد[1] الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى، لما بعثهما إلى اليمن[2]: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا».

وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى: إنى صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره. وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ[3]: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقال[4]: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولهذا قال: أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم[5] أن الله تعالى قال: بعد

(١) سبق تخريجه. (٢) أخرجه البزار في مسنده حديث (٣١١٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٢٧)، والترمذي حديث (١١٨٣).
(٤) سبق تخريجه. (٥) أخرجه مسلم (١٢٦)، والترمذي (٢٩٩٢).

كل سؤال من هذه: «قد فعلت، قد فعلت».

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ أى عظموه ووقروه.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أى القرآن والوحى الذى جاء به مبلغًا إلى الناس، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم. قال البخارى [١]، رحمه الله فى تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زيد حدثنى بشر بن عبيد الله حدثنى أبو إدريس الخولانى قال: سمعت أبا الدرداء، رضى الله عنه يقول: كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبًا، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ - فقال أبو الدرداء: ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» - أى: غاضب وحاقد - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبى؟ إنى قلت: يا أيها الناس، إنى رسول الله إليكم جميعًا، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخارى.

وقال أيضًا [٢]: حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى - ولا أقوله فخرًا: - بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئًا». إسناد جيد ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن عمرو بن

---

(١) أخرجه البخاري، حديث (٤٦٤٠). (٢) أخرجه أحمد، حديث (٢٧٣٧).

شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلى، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لملئ منى رعبًا، وأحلت لى الغنائم أكلها، وكان من قبلى يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلى يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى قيل لى: سل فإن كل نبى قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوى أيضًا ولم يخرجوه.

وقال الإمام أحمد [1]: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة». وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس - وهو سليم بن جبير - عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد [2]: حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئًا».

وهذا أيضًا إسناد صحيح [3]، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضًا، وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضًا من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة».

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى، فى قول: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ﷺ أى إن الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به، ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت

(١) أخرجه أحمد، حديث (١٩٠٤٢). (٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٣٨)، ومسلم برقم (٥٢١)، والنسائي برقم (٤٣٢).

بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أى يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أى اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى إلى الصراط المستقيم.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. قد ذكر ابن جرير فى تفسيرها خبرًا عجيبًا، فقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: بلغنى أن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا - وكانوا اثنى عشر سبطًا - تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله، عز وجل، أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقًا فى الأرض، فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا. قال ابن جريج: قال ابن عباس: فذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] أو «وعد الآخرة»: عيسى ابن مريم - قال ابن جريج: قال ابن عباس: ساروا فى السرب سنة ونصفًا. وقال ابن عيينة، عن صدقة أبى الهذيل، عن السدى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ قال: قوم بينكم وبينهم نهر من شهد.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

تقدم تفسير هذا كله فى سورة «البقرة» وهى مدنية، وهذا السياق مكى، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق، وذاك بما أغنى عن إعادته هنا، ولله الحمد والمنة.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ۘ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ الآية [البقرة: ٦٥]، يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ أى واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطئ بحر القلزم. قال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها: «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد وقتادة والسدى. وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن زيد: هى قرية يقال لها «متنا» بين مدين وعينونا. وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أى ظاهرة على الماء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿شُرَّعًا﴾ من كل مكان. قال ابن جرير وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها. وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة، رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل». وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب فى تاريخه ووثقه وباقى رجاله مشهورون ثقات، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيرًا.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا؟﴾ أى لمَ تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم.

قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب، أى نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين: وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: هى قرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة» فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعًا فى ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غيًا وعتوًا، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة. وروى العوفى، عن ابن عباس قريبًا من هذا.

وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قال: ما أدرى أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكسانى حلة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج حدثنى رجل عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يومًا وهو يبكى وإذا المصحف فى حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس؟ جعلنى الله فداك قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو فى سورة «الأعراف» قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حى من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعًا بيضاء سمانًا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم. فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهيتُم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها فى غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت. وقال الأيمنون: ويلكم، الله ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله.

وقال الأيسرون: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ قال: الأيمنون ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أى ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا: وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء الله. والله لا نبايتكم الليلة فى مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا، فلم يجابوا فوضعوا سلمًا، وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أى عباد الله، قردة والله تعادى تعاوى لها أذناب، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى، فيقول: ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها، أى نعم. ثم قرأ ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها. قال: قلت: جعلنى الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ قال: فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين. وكذا روى مجاهد عنه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال: زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[الأعراف: ١٦٣] قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شىء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ - لذلك - رجل خيطًا ووتدًا، فربط حوتًا منها فى الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم، فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوت وجدناه، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك - ولا أدرى لعله قال: ربط حوتين - فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع. فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كثر ذلك. وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به، وقد قدمنا فى سورة «البقرة» من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، ولله الحمد والمنة.

(القول الثانى): أن الساكتين كانوا من الهالكين. قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس؛ أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعًا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا فخزم أنفه ثم ضرب له وتدًا فى الساحل وربطه وتركه فى الماء فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك فى الأسواق ففعل علانية. قال: فقالت: طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾، فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا﴾ - إلى قوله: - ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

قال ابن عباس: كانوا ثلاثًا: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم. وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين، أولى من القول بهذا؛ لأنه تبين حالهم بعد ذلك، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و ﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه فى قول مجاهد: الشديد، وفى رواية: أليم وقال قتادة: موجع، والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أى ذليلين حقيرين مهانين.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تفعل من الأذان أى: أعلم قاله مجاهد، وقال غيره: أمر. وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا تلقيت باللام فى قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى على اليهود: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. ويقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج، سبع سنين - وقيل: ثلاث عشرة سنة - وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. قال العوفى، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: هى المسكنة وأخذ الجزية منهم. وقال على بن أبى طلحة عنه: هى الجزية، والذى يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة. وكذا قال سعيد بن جبير، وابن جريج والسدى وقتادة، وقال عبد الرزاق: عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارًا للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أى لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى لمن تاب إليه وأناب. وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرًا؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أممًا أى طوائف وفرقًا كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]. ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أى فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]،

﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أى اختبرناهم ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أى بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح، خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة - وقال مجاهد: هم النصارى - وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أى يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله، منه ويعترفون لله فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾.

قال: لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حرامًا ويتمنون المغفرة ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾، وقال قتادة فى قوله ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: إى والله لخلف سوء ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [مريم: ٥٩]. قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى وغرة يغترون بها، ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شىء ولا ينهاهم شىء، عن ذلك كلما هف لهم شىء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حرامًا. وقال السدى فى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ قال: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى فى الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشى فى الحكم؟ فيقول: «سيغفر لى»، فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع، وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه، فيرتشى، يقول: وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الآية يقول تعالى منكرًا عليهم فى صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس، ولا يكتمونه كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟ ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ الحزب ١٨

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال سفيان الثورى، عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رءوسهم.

وقال القاسم [١] بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رءوسهم رواه النسائى بطوله.

وقال سنيد بن داود فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال: هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه؟ بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم؟ قالوا: انشر علينا ما فيها فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها.

قال: اقبلوها بما فيها قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارًا فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل. قال: فحدثنى الحسن البصرى قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجدًا على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقًا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة.

قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده، لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير، ولا كبير، تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه، أى حوّل كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفى الصحيحين [٢] عن أبى

---

(١) سبق تخريجه وهو جزء من حديث الفتون. (٢) سبق تخريجه.

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفى رواية على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم [١] عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير [٢]، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: حدثنى الأسود بن سريع فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة، به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير [٤]، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾». وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزى به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفًا، وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه الطبرى (٩/ ١١٣).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣٤)، ومسلم برقم (٢٨٠٥)، وأحمد، حديث (١١٨٨٠).
(٤) أخرجه أحمد (٢٤٥١)، والطبرى في تفسيره (٩/ ١١١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٠)، حديث (٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٥) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفى رواية على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم [١] عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير [٢]، رحمه الله: حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين! ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: والله لقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

وقد رواه الإمام أحمد، عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: حدثنى الأسود بن سريع فذكره، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك. وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا به؟» قال: «فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة، به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير - يعنى ابن حازم - عن كلثوم بن جبير [٤]، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾». وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه، عن محمد بن عبد الرحيم - صاعقة - عن حسين بن محمد المروزى به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبى حاتم جعله موقوفًا، وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه الطبرى (٩/ ١١٣).
(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٣٣٤)، ومسلم برقم (٢٨٠٥)، وأحمد، حديث (١١٨٨٠).
(٤) أخرجه أحمد (٢٤٥١)، والطبرى في تفسيره (٩/ ١١١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٠)، حديث (٧٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٥) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود عن القعنبى - والنسائى عن قتيبة - والترمذى فى تفسيرهما عن إسحاق بن موسى عن معن، وابن أبى حاتم، عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب. وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من رواية أبى مصعب الزبيرى كلهم عن الإمام مالك بن أنس به. قال الترمذى: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر وكذا قاله أبو حاتم، وأبو زرعة زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة. وهذا الذى قاله أبو حاتم رواه أبو داود فى سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشى عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار الجهنى، عن نعيم بن ربيعة قال: كنت عند عمر بن الخطاب، وقد سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، فذكره. وقال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جعثم يزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم. قلت: الظاهر أن الإمام مالكًا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمدًا؛ لما جهل حال نعيم بن ربيعة ولم يعرفه فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيرًا من المرفوعات ويقطع كثيرًا من الموصولات، والله أعلم.

(حديث آخر) [1]: قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود. قال: رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أى رب، وقد وهبت له من عمرى أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ. ورواه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره، من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، أنه حدث عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن

(١) أخرجه الترمذي، حديث (٣٠٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة. والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٤٠) حديث (٤١٣٢)، عن أبي هريرة، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

رسول الله ﷺ، فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك. وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتى؟ قال: كى تشكر نعمتى. وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورًا؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك». ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم.

(حديث آخر) [1]: روى عبد الرحمن بن قتادة النضرى، عن أبيه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أتبدأ الأعمال، أم قد قضى القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه» ثم قال: «هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار». رواه ابن جرير، وابن مردويه من طرق عنه.

(حديث آخر) [2]: روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق وقضى القضية، أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله، فقال: يا أصحاب اليمين. فقالوا: لبيك وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. قال: يا أصحاب الشمال. قالوا: لبيك وسعديك. قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. ثم خلط بينهم، فقال قائل له: يا رب، لم خلطت بينهم؟ قال: لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ثم ردهم فى صلب آدم». رواه ابن مردويه.

(أثر آخر): قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، الآيات قال: فجمعهم له يومئذ جميعًا، ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق، ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾؟ الآية قال: فإنى أشهد عليكم السموات السبع، والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيرى، ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئًا وإنى سأرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى. قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك. فأقروا له يومئذ بالطاعة، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة ودون ذلك. فقال: يا رب، لو سويت بين عبادك؟ قال: إنى أحببت أن أشكر. ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ الآية [الأحزاب: ٧]، وهو الذى يقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[الروم: ٣٠] الآية.

ومن ذلك قال: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾[النجم: ٥٦]، ومن ذلك قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾[الأعراف: ١٠٢] الآية.

رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه، ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى

(١) رواه الطبري (٩/ ١١٧) عن هشام بن حكيم، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٦٨)، حديث (٤٣٤).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٢) حديث (٧٩٤٣) عن أبي أمامة.

تفاسيرهم، من رواية أبى جعفر الرازى به، وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرنًا بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أى: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقال. والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ [إبراهيم: ٣٤] قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره.

وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أى التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

قال عبد الرزاق، عن سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور عن أبى الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآية قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن آبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به. وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. قال قتادة: وقال

كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيمًا ببيت المقدس مع الجبارين. وقال العوفى، عن ابن عباس رضى الله عنه: هو رجل من أهل اليمن، يقال له: بلعم، آتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس: هو بلعم بن باعر، وكذا قال مجاهد وعكرمة.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال: هو بلعام. وقالت ثقيف: هو أمية بن أبى الصلت. وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو فى قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية قال: هو صاحبكم أمية بن أبى الصلت. وقد روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله. وقد جاء فى بعض الأحاديث «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه» فإن له أشعارًا ربانية وحكمًا وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا ابن أبى نمر حدثنا سفيان عن أبى سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال: هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن، وكانت له امرأة له منها ولد فقالت: اجعل لى منها واحدة قال: فلك واحدة فما الذى تريدين؟ قالت: ادع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل. فدعا الله، فجعلها أجمل امرأة فى بنى إسرائيل، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئًا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا: ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التى كانت عليها، فدعا الله، فعادت كما كانت، وذهبت الدعوات الثلاث، وتسميت البسوس. غريب.

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: هو رجل من مدينة الجبارين، يقال له: «بلعام» وكان يعلم اسم الله الأكبر.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف: كان مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه. وأغرب بل أبعد، بل أخطأ من قال: كان قد أوتى النبوة فانسلخ منها، حكاه ابن جرير، عن بعضهم ولا يصح، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم - يعنى بالجبارين - ومن معه أتاه - يعنى بلعم - أتاه بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إنى إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياى وآخرتى. فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك

قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية.

وقال السدى: إن الله لما انقضت الأربعون سنة التى قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة: ٢٦]، بعث يوشع بن نون نبيًّا، فدعا بنى إسرائيل فأخبرهم أنه نبى، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له: «بلعم» فكان عالمًا، يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم: لا ترهبوا بنى إسرائيل فإنى إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون! وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتى النساء؛ يعظمهن فكان ينكح أتانًا له وهو الذى قال الله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أى استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أى من الهالكين الحائرين البائرين. وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ [1] أبو يعلى الموصلى فى مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلى فى هذا المسجد أن حذيفة يعنى ابن اليمان رضى الله عنه حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبى الله أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى». إسناد جيد، والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين، ولم يرم بشىء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أى لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أى مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنهى. وقال أبو الراهويه فى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس، فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير، وغير واحد.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير، رحمه الله: وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه: أنه سئل عن هذه الآية ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له: بلعام، وكان مجاب الدعوة، قال: وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام أو قال: الشام قال: فرعب الناس منه رعبًا شديدًا، فأتوا بلعام فقالوا: ادع الله على هذا الرجل وجيشه، قال: حتى أؤامر ربى - أو حتى أؤامر - قال: فآمر فى الدعاء عليهم، فقيل له: لا تدع عليهم فإنهم عبادى وفيهم نبيهم، قال: فقال لقومه: إنى قد آمرت ربى فى الدعاء عليهم وإنى قد نهيت، فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا: ادع عليهم فقال: حتى أؤامر ربى فآمر فلم يحر إليه بشىء فقال: قد وامرت فلم يأمرنى بشىء فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى. قال: فأخذ يدعو عليهم، فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٨٢)، والبزار في مسنده (٧/ ٢٢٠) حديث (٢٧٩٣).

قومه، وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه، دعا أن يفتح لموسى وجيشه - أو نحوًا من ذلك إن شاء الله. قال: فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا، قال: ما يجرى على لسانى إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضًا ما استجيب لى ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم، إن الله يبغض الزنا، وإنهم إن وقعوا فى الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال: ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال: وكان للملك ابنة، فذكر من عظمها ما الله أعلم به! قال: فقال أبوها - أو بلعام -: لا تمكنى نفسك إلا من موسى! قال: ووقعوا فى الزنا. قال: فأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل، فأرادها على نفسه، فقالت: ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى فقال: إن منزلتى كذا وكذا، وإن من حالى كذا وكذا؛ فأرسلت إلى أبيها تستأمره، قال: فقال لها: مكنيه، قال: ويأتيها رجل من بنى هارون، ومعه الرمح فيطعنهما. قال: وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعًا، ورفعهما على رمحه، فرآهما الناس - أو كما حدث - قال: وسلط الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفًا.

قال أبو المعتمر: فحدثنى سيار: أن بلعامًا ركب حمارة له حتى أتى العلولى - أو قال: طريقًا من العلولى - جعل يضربها ولا تتقدم، وقامت عليه فقالت: علام تضربنى؟ أما ترى هذا الذى بين يديك؟ فإذا الشيطان بين يديه، قال: فنزل وسجد له، قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال: فحدثنى بهذا سيار ولا أدرى لعله قد دخل فيه شىء من حديث غيره. قلت: هو بلعام - ويقال: بلعم - بن باعوراء، ويقال: ابن أبر، ويقال: ابن باعور بن شهوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران - ويقال: بن حران - بن آزر. وكان يسكن قرية من قرى البلقاء. قال ابن عساكر: وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم، فانسلخ من دينه، له ذكر فى القرآن. ثم أورد من قصته نحوًا مما ذكرناه ههنا، أورده عن وهب وغيره، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق بن سيار: عن سالم أبى النضر؛ أنه حدث أن موسى عليه السلام، لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم، قال: ويلكم! نبى الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم؟! قالوا له: ما لنا من منزل! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو جبل حسبان، فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيرًا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت: ويحك يا بلعم: أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل.

فقال له قومه: أتدرى يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا مالا أملك، هذا

شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم: قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا فلما دخلت النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتى - ابنة صور ورأس أمته - برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته، فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال: إنى أظنك ستقول: هذا حرام عليك لاتقربها قال: أجل هى حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك فى هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون فى بنى إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبًا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحييه وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفًا، والمقلل لهم يقول: عشرون ألفًا فى ساعة من النهار، فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر أبيه العيزار. ففى بلعام بن باعور أنزل الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ - إلى قوله -: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبى النضر: أن بلعاما اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب فى لهثه فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك. ظاهر، وقيل: معناه: فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب فى لهثه فى حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث فى الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٦]، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك، وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال، ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ﴾ أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب فى غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى فيحذروا أن يكونوا مثله؛ فإن الله قد أعطاهم علمًا، وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ

يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به؛ ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يقول تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهًا بالكلب وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه».

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ أى ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود[2]: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله». الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وغيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أى خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أى: هيأناهم لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد فى صحيح مسلم[3] عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». وفى صحيح مسلم[4] أيضًا، من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: دعى النبى ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٦٢٢)، والترمذي حديث (١٢٩٨)، والنسائي حديث (٣٦٩٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١١٨)، والنسائي حديث (١٤٠٤)، وابن ماجه (١٨٩٢)، وأحمد برقم (٣٧١٢) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي حديث (٢١٥٦)، وأحمد حديث (٦٥٤٣) عن عبد الله بن عمرو.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، والنسائي (١٩٤٧)، وابن ماجه (٨٢)، وأحمد (٢٣٦١٢)، من حديث عائشة.

وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم فى أصلاب آبائهم» . وفى الصحيحين [١] من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد» . وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى» . والأحاديث فى هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ يعنى: ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببًا للهداية، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] الآية، وقال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]، هذا فى حق المنافقين، وقال فى حق الكافرين: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًّا ولا بكمًا ولا عميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يعيشها فى ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال فى هؤلاء: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أى: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

عن أبى هريرة [٢] رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعًا وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» . أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عنه، ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأبو داود (٤٧٠٨) عن عبد الله بن مسعود.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧)، والترمذي (٣٥٠٦)، وابن ماجه برقم (٣٨٦٠).

شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر: هوالله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار، القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط، الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير، الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور، الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم، الرقيب المجيب الواسع الحكيم، الودود المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى الحميد، المحصى المبدئ المعيد، المحيى المميت، الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد، الفرد الصمد، القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر، الظاهر الباطن الوالى المتعالى، البر التواب المنتقم العفو الرءوف، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى، المانع الضار النافع، النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور».

ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث، ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان به. وقد رواه ابن ماجه فى سننه، من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعًا فسرد الأسماء كنحو مما تقدم بزيادة ونقصان.

والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى أنهم جمعوها من القرآن. كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم. ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد [1] فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم عن عبد الرحمن عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إنى عبدك ابن أمتك، ناصيتى بيدك ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحًا» فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الأحوذى فى شرح الترمذى»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم. وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ قال: إلحاد الملحدين أن دعوا «اللات» فى أسماء الله. وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ قال: اشتقوا «اللات» من الله، والعزى من العزيز. وقال قتادة: يلحدون: يشركون. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

(١) أخرجه أحمد (٣٧٠٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، حديث (٩٧٢).

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أى بعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً، ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية. قال سعيد عن قتادة فى تفسير هذه الآية [١]: بلغنى أن النبى ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قومًا على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفى الصحيحين [٢] عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» وفى رواية: «حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» وفى رواية: «وهم بالشام».

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥] ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أى وسأملى لهم، أى أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أى قوى شديد.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعنى محمدًا ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أى ليس به جنون، بل هو رسول الله حقًا، دعا إلى حق، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦]، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قيامًا خالصًا لله، ليس فيه تعصب ولا عناد، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، أى مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقًا وصدقًا. وقال قتادة بن دعامة [٣]: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشًا، فجعل يفخذهم فخذًا فخذًا: «يا بنى فلان، يا بنى فلان» فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) رواه الطبري (٩/ ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم حديث (١٩٢٠)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩).

(٣) رواه ابن جرير (٩/ ١٣٦).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض، وفيما خلق من شىء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه. وقوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه، الذى أتاهم به من عند الله فى آى كتابه يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟! وقد روى الإمام أحمد [1] عن حسن بن موسى وعفّان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث، كلهم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى، فلما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى، فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب». على بن زيد بن جدعان له منكرات. ثم قال تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزى عنه شيئًا، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] قيل: نزلت فى قريش. وقيل: فى نفر من اليهود. والأول أشبه؛ لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادًا لوقوعها، وتكذيبًا بوجودها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨] وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: منتهاها أى: متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول

(١) أخرجه أحمد (٨٤٢٦)، وابن ماجه، (٢٢٧٣).

وقت الساعة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة، أن يرد علمها إلى الله تعالى؛ فإنه هو الذى يجليها لوقتها، أى يعلم جلية أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، فى قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، أنهم لا يعلمون، قال معمر: قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول: كبرت عليهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قال: ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة. وقال ابن جريج: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت النجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض، كما قال قتادة، وهو كما قالاه كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض، والله أعلم. وقال السدى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: خفيت فى السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب، ولا نبى مرسل ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يبغتهم قيامها، تأتيهم على غفلة. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾: قضى الله أنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾. قال: وذكر لنا أن نبى الله كان يقول: «إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه، والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه». وقال البخارى [1]: حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرًا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» وقال مسلم [2] فى صحيحه: حدثنى زهير بن حرب، حدثنا سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال: «تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة. والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة. والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم».

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه كما قال العوفى عن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأن بينك وبينهم مودة، كأنك صديق لهم. قال ابن عباس: لما سأل الناس النبى ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدًا حفى بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده، استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكًا مقربًا ولا رسولاً، وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك والسدى، وهذا قول. والصحيح عن

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٦). (٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٤).

مجاهد من رواية ابن أبى نجيح وغيره ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال: استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقال معمر عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح فى المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [(١)]؛ ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى، ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» أى لست أعلم بها منك ولا أحد بها من أحد، ثم قرأ النبى ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وفى رواية: فسأله عن أشراط الساعة، فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «فى خمس لا يعلمهن إلا الله» وقرأ هذه الآية، وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب: «صدقت»؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»، وفى رواية قال: «وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه».

وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد، فى أول شرح البخارى، ولله الحمد والمنة، ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» - على نحو من صوته - قال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، ولكننى أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب». فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث، وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين [(٢)] وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين. ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعيين وقته، ولهذا قال مسلم [(٣)] فى صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم». يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة. ثم قال مسلم [(٤)]: وحدثنا أبو بكر بن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، والنسائي (٤٩٩١).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٥١١)، ومسلم (٢٩٥٢) عن عائشة.
(٤) أخرجه مسلم، (٢٩٥٣)، وأحمد (١٣٤٣٨) عن أنس.

أبى شيبة، حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال رسول الله ﷺ: «إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». انفرد به مسلم. وحدثنى حجاج بن الشاعر، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا سعيد بن أبى هلال المصرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوءة فقال: «إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» قال أنس: ذلك الغلام من أترابى، وقال: حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا عفان بن مسلم، حدثنا همام، حدثنا قتادة عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابى فقال النبى ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة». ورواه البخارى فى كتاب «الأدب» من صحيحه، عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس، أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفى آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة» وذكره. وهذا الإطلاق فى هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» فى حديث عائشة رضى الله عنها.

وقال ابن جريج [1]: أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألونى عن الساعة، وإنما علمها عند الله، وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتى عليها مائة سنة». رواه مسلم. وفى الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن. وقال الإمام أحمد [2]: حدثنا هشيم، أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مؤثر بن عفارة عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى» قال «فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام، فقال: لا علم لى بها، فردوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل، وفيما عهد إلى ربى عز وجل أن الدجال خارج - قال -: ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: فيهلكه الله عز وجل إذا رآنى حتى إن الشجر والحجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافرًا فتعال فاقتله، قال: «فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطأون بلادهم، لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه»: قال: «ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعوالله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن»، قال: «فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر».

قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم، ثم رجع إلى حديث هشيم، قال: ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولادتها ليلاً أو نهارًا. ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده، نحوه. فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣٨) عن جابر بن عبد الله. (٢) سبق تخريجه.

الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراطها؛ لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذًا لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به.

وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا يحيى بن أبى بكير، حدثنا عبيد بن إياد بن لقيط، قال: سمعت أبى يذكر عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربى عز وجل لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجًا»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «ويلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحدًا». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وقال وكيع: حدثنا ابن أبى خالد عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الآية [النازعات: ٤٢]، ورواه النسائى من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خالد به، وهذا إسناد جيد قوى. فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة ونبى التوبة، ونبى الملحمة، والعاقب والمقفى والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه فى الصحيح [٢] من حديث أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه السبابة والتى تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب، ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ الآية [الجن: ٢٦-٢٧]. وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ قال: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحًا. وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان دِيمة. وفى رواية: كان إذا عمل عملا أثبته، فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أى من المال. وفى رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئًا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئًا إلا

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧٩٥) عن حذيفة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) عن أنس، والبخاري (٥٣٠١)، ومسلم (٢٩٥٠) عن سهل بن سعد.

ربحت فيه، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾، ولا يصيبنى الفقر.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

ربع الحزب ١٨

﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ الآية [النساء: ١]، وقال فى هذا الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أى ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أى وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾، وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألمًا، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة. وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وروى عن الحسن وإبراهيم النخعى والسدى نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربيًا لعرفت ما هى إنما هى؟ فاستمرت به، وقال قتادة ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: استبان حملها.

وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت. وقال العوفى عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أى صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدى: كبر الولد فى بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أى: بشرًا سويًا، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنسانًا. وقال الحسن البصرى: لئن آتيتنا غلامًا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يذكر المفسرون ههنا آثارًا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد [1] فى مسنده: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦١٠)، والترمذي (٣٠٧٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٤)، حديث (٤٠٠٣) وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.

عن سمرة عن النبى ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس- وكان لا يعيش لها ولد- فقال: سميه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره» وهكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، ورواه الترمذى فى تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعًا، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعًا. قلت: وشاذ هو: هلال، وشاذ لقبه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازى: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا، فالله أعلم.

(الثانى): أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعًا، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه وحدثنا بكر بن عبد الله بن سليمان التيمى، عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث.

(الثالث): أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه. قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم. وحدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى-: قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود، والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم. فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلًا فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ إلى آخر الآية.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله فى آدم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ - إلى قوله: - ﴿فَمَرَّتْ

بِهِۦ﴾ شكت: أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكم؟ أم هل تدريان ما يكون؟ أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه غوى مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويًّا ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية.

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك، عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ فأتاهما إبليس - لعنه الله - فقال: إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى إبل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - فسمياه «عبد الحارث» فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضًا، فقال: أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضًا فذكر لهما فأدركهما، حب الولد فسمياه «عبد الحارث»، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ رواه ابن أبى حاتم. وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبى بن كعب، كما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان، فقال لها: أتطيعينى ويسلم لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعينى يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبهما فأطاعا. وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال [1]: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضًا. ومنها: ما هو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته، بقوله عليه السلام [2]: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يصدق ولا يكذب، لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وهذا الأثر: هو من القسم الثانى أو الثالث، فيه نظر. فأما من حدث به من صحابى أو تابعى، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الآية [الملك: ٥]، ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست هى التى يرمى بها، وإنما

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر فى القرآن، والله أعلم.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أى أتشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئًا ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئًا من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآية [الصافات: ٩٥-٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى لعابديهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ يعنى: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبًا للأرامل؛ ليعتبر قومهما بذلك ويرتثوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح وكان سيدًا فى قومه صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه، ويضع عنده سيفًا ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعه أيضًا، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تالله لو كنت إلهًا مستدن ... لم تك والكلب جميعًا فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيدًا رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية يعنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئًا من ذلك.

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الآية، أى استنصروا بها على، فلا تؤخرونى طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أى الله حسبى وكافى، وهو نصيرى وعليه متكلى وإليه ألجأ، وهو وليى فى الدنيا والآخرة، وهو ولى كل صالح بعدى. وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦]، وكقول الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٠] الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآية [فاطر: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهى جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صورة مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل.

وقال السدى: المراد بهذا المشركون، وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعنى: خذ ما عفى لك من أموالهم، وما أتوك به من شىء فخذه، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدى. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: الفضل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال غير واحد عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس. وقال هشام بن عروة عن أبيه: أمر الله رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وفى رواية قال: خذ ما عفى لك من أخلاقهم، وفى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس وفى رواية عن أبيه عن ابن عمر، وفى رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنهما قالا مثل لك، والله أعلم.

وفى رواية سعيد بن منصور [1] عن أبى معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبى الزبير ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾، قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم جميعًا: حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أمى قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك، وقد رواه ابن أبى حاتم أيضًا عن أبى يزيد القراطيسى كتابة، عن أصبغ بن الفرج عن سفيان عن أبى عن الشعبى نحوه، وهذا مرسل على كل حال، وقد روى له شواهد من وجوه أخر، وقد روى مرفوعًا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ أسندهما ابن مردويه.

وقال الإمام أحمد [2]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، حدثنى على بن يزيد عن القاسم بن أبى أمامة الباهلى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك» وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد به. وقال: حسن. قلت: ولكن على بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف. وقال البخارى [3] قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾: العرف: المعروف.

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهرى، أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل، وانفرد بإخراجه البخارى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مالك بن أنس عن عبيد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لأهل الشام وفيها جرس،

(١) رواه الطبرى (٩/ ١٥٥).
(٢) أخرجه أحمد (١٦٨٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (٤٦٤٢).

فقال: إن هذا منهى عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وقول البخارى: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد، وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفًا وعارفًا وعارفة، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمرًا لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب. وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها، وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيهما جناس، فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولِنْ فى الكلام لكل الأنام ... فمستحسَن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان، فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه، وإما مسىء فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦] أى هذه الوصية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ وقال فى هذه السورة الكريمة أيضًا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ فهذه الآيات الثلاث فى الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى، يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالتى هى أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإن لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك، وقال ابن جرير فى تفسير قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شىء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزلت ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ قال: يا رب كيف بالغضب؟، فأنزل الله ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قلت: وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ فغضب أحدهما حتى

جعل أنفه يتمرغ غضبًا، فقال رسول الله ﷺ [١]: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له، فقال: ما بي من جنون. وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ ففي طلب الخير، كما قال أبو الطيب المتنبي في شعره:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أي أصابهم «طَيْفٌ». وقرأ الآخرون ﴿طَائِفٌ﴾، وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان، فقيل: بمعنى واحد، وقيل: بينهما فرق، ومنهم من فسر ذلك بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده، ووعيده، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه. وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه [٢] ههنا حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك» فقالت: بل أصبر ولا حساب علي، ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت: يا رسول الله إني أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة» فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شابًا كان يتعبد في المسجد، فهويته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ فخر مغشيًا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلًا فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة مرتين.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم يمدونهم في الغي

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٢٨٢)، ومسلم برقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٣) حديث (٧٥١١).

أى تساعدهم الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم.

وقال ابن كثير: المد الزيادة يعنى يزيدونهم فى الغى يعنى الجهل والسفه ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر فى أعمالهم بذلك، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝﴾ الآية، قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم، وقيل: معناه كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، يقول لا يسأمون، وكذا قال السدى وغيره: إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ لا تفتر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجًا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك، وكذا قال قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى.

وقال الضحاك ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ أى معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤] يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أى أنا لا أتقدم إليه تعالى فى شىء، وإنما أتبع ما أمرنى به فأمتثل ما يوحيه إلى، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لى فى ذلك، فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ الآية[فصلت: ٢٦]، ولكن يتأكد ذلك من الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم[1] فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة

(١) سبق تخريجه.

أيضًا، وصححه مسلم بن الحجاج أيضًا، ولم يخرجه فى كتابه، وقال إبراهيم [١] بن مسلم الهجرى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال: كانوا يتكلمون فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ والآية الأخرى، أمروا بالإنصات.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة، فجاء القرآن ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾. وقال أيضًا: حدثنا أبو كريب، حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناسًا يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ كما أمركم الله، قال [٢]: وحدثنى أبو السائب، حدثنا حفص عن أشعث عن الزهرى قال: نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئًا قرأه، فنزلت ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾. وقد روى الإمام أحمد [٣] وأهل السنن من حديث الزهرى عن أبى أكيمة الليثى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: «هل قرأ أحد منكم معى آنفًا؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إنى أقول ما لى أنازع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وصححه أبو حاتم الرازى.

وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهرى قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرًّا فى أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرًّا ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها، وهو أحد قولى الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال فى الجديد: يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلًا فى السرية ولا الجهرية بما ورد فى الحديث [٤] «من كان له إمام فقراءته قراءة له» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعًا، وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفًا، وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخارى مصنفًا على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضًا، والله أعلم.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ يعنى فى الصلاة المفروضة، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل.

---

(١) رواه الطبرى (٩/ ١٦٣) عن أبي هريرة. (٢) رواه الطبرى (٩/ ١٦٣).
(٣) أخرجه أحمد (٧٧٦٠)، وأبو داود (٨٢٦)، والترمذي (٣١٢) والنسائي (٩١٩).
(٤) أخرجه أحمد (١٤٢٣٣)، وابن ماجه (٨٥٠).

وقال ابن جرير: حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان، والقاص يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إلى ثم أقبلا على حديثهما، قال: فأعدت فنظرا إلى وأقبلا على حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إلى فقالا: إنما ذلك فى الصلاة ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هشام إسماعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: فى الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد.

وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعى وقتادة والشعبى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن المراد بذلك فى الصلاة.

وقال شعبة عن منصور: سمعت إبراهيم بن أبى حمزة يحدث أنه سمع مجاهدًا يقول فى هذه الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال: فى الصلاة وعند الذكر. وقال ابن المبارك عن بقية: سمعت ثابت بن عجلان يقول: سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة، كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئًا، قال: السكوت. وقال مبارك بن فضالة عن الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

وقال الإمام أحمد [1]: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورًا يوم القيامة». تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ سجدة

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرًا، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩] وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية.

وقال ههنا: بالغدو، وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرًا، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرًا بليغًا، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٩).

فقالوا [١] : أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وفي الصحيحين [٢] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به؛ لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم، وليتخذ سبيلًا بين الجهر والإسرار، وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة. وهذا بعيد مناف للإنصات المأمور به.

ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم أو في الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سرًا أو جهرًا، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث [٣] «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون في الصف» وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعيها السجود بالإجماع، وقد ورد في حديث [٤] رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدات القرآن.

آخر سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة

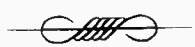

(١) رواه الطبري (٢/ ١٥٨)، وابن حبان في الثقات (٨/ ٤٣٦)، حديث (١٤٢٨٩)، عن الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أخرجه مسلم (٤٣٠)، وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٦)، وابن ماجه (٩٩٢) عن جابر بن سمرة.
(٤) أخرجه ابن ماجه برقم (١٠٥٦) عن أبي الدرداء.